ثلاثة مفكرين فى الدين

ودرو ولسون — وهنري فنديك — ووليم برين

بقلم

الارشمندريت انطونيوس بشير

صاحب مجلة الخالدات

عني بنشره وتصحيحه

الشيخ يوسف توما البستاني

صاحب مكتبة العرب

بالفجالة بمصر

١٩٣٠

مطبعة العرب للبستاني

بالفجالة بمصر

ثلاثة مفكرين في الدين

ودرو ولسون — لوثر بربنك — ووليم برين

بقلم

الارشمندريت انطونيوس بشير

صاحب مجلة الخالدات

عني بنشره وتصحيحه

الشيخ يوسف توما البستاني

صاحب مكتبة العرب الحديثة العا

بالفجالة بمصر

١٩٣٠

مطبعة العرب للبستاني

بالفجالة بمصر

أيها القارىء الاديب

المفكرون الثلاثة في هذا الكتاب هم ودرو ويلسون ، ووليم برين وهنري فنديك. الثلاثة اميركيون،والثلاثة من أمراء المفكرين في القرن العشرين . كان الأول رئيساً للولايات المتحدة مدة ثمان سنوات أظهر في اثنائها من عجائب الحكمة الانسانية ما جعله في مقدمة جيش الخالدين من الملوك والرؤساء . وكان الثاني اخطب خطباء بلاده وزمانه ، فدوّن التاريخ آيات بلاغته على صفحات القلوب . وكان الثالث أمير المفكرين في رجال الدين باميركا ،فأحيت كتاباته الرغبة في قراءة الكتب المقدسة والتأمل في روحها دون حروفها .

قد قرأت الكثير من أقوال هؤلاء المفكرين في الدين ، فحملتني رغبتي في خدمة ابناء قومي على اقتطاف ما اعتقدت بفائدته من افكار هؤلاء الزعماء ، وطبعه في هذا الكتيّب الصغير ، الذي اضعه بين يديك راجياً ان تكون لك منه الفائدة التي تريدها ، وانا لك باخلاص كثير

تشوادا المكسيك — الارشمندريت

انطونيوس بشير

ويلسون والدين

اطلق بعضهم على المرحوم الرئيس ودرو ويلسون اسم « نبي اميركا » ، وهو بحق اهل لهذا الاسم . لانه كان من خيرة الرؤساء والملوك ، الذين كان الدين جزءاً من وجدانهم وقائداً لحياتهم ،قبلما كان الفاظاً ترددها شفاههم ، وطقوساً يمارسونها كالآلات الجامدة من غير ان يدركوا الغاية منها . فقد عرفته الانسانية إماماً من كبراء أئمة العلم ، وسياسياً محنكاً من نخبة رجال السياسة ، ورئيساً عادلاً لاعظم حكومة تحت الشمس . ولكن قل من ادرك ان الوحي الذي استمد منه ويلسون علمه ، وحكمته ، وادارته انما هبط عليه من روح الحكمة ، ونبراس المعرفة — من الدين الحقيقي الذي آمن به من اعماق قلبه فجعله ويلسون القرن العشرين ورسول القرون المقبلة وها انا أقدم للقراء الادباء فقرات قليلة اقتطفتها من خطبه ، وهي توضح آراءه في الدين ، والكتاب المقدس ، والمسيحية ، والكنيسة ، والصلاة ، ويسوع ، مؤملا ان يطالعها القاريء العزيز بما هي جديرة به من العناية ، لتتم له الفائدة الروحية فيدرك ان الدين هو النبراس الساطع الضياء الذي يبدد بانواره العلوية ظلمات الحياة ، والمعين النقي الفياض الذي يروي ظمأ جميع العطاش للبر بمياه السعادة التي لا تشيخ والغبطة التي لا تفنى .

— ١ —

اقواله في الدين

« كلنا يذكر العهد الذي كان فيه رجال القلم واثقين كل الثقة بالرأي المادي في الوجود . غير ان الموقف العدائي الذي اتخذوه ضد الدين وقضاياه الروحية لم يكن موقف مهاجم ، بل انما كان موقف مدافع يود الاكتفاء بذاته والقناعة بمعرفته. فلم يعنوا بالمباحث الروحية التي تفوق حدود حواسهم الضيقة ، لأنهم حسبوا البحث فيها عبثا ، وخيـل اليهم أن ليس من فائدة لهم في درس العوامل السرية في نظام الوجود ، واستقصاء الينابيع الاولية التي تنبع منها الحياة في العالم . ولـكن ذلك عهد مضى ولن يعود . فان عظماء رجال العلم اليوم يشعرون بان الايضاح الذي يظهرون به حقيقة الوجود انما هو ايضاح مبتور ناقص لا يستطيع ان يأتي بالطمأنينة المنشودة لافكارهم — بقطع النظر عن نفوسهم وسعادتها — من غير ان يضيفوا اليه شيئاً جديداً . وانهم لعلى يقين ان من أهم اجزاء دائرة المعرفة التي بلغوا كنهها — هذا الجزء الروحي ، الذي على رغم انكارهم اياه ، لا تستطيع الدائرة بدونه على الظهور بكمالها وجمالها.

فالدين اعظم قوة في العالم لقيادة البشرية الى السعادة الـكاملة وليس في منال الانسان ، مهما بلغت فلسفته من العظمة ، ان يتخذ منها جزءاً من مليون مما يستطيع ان يتخذه من ايمانه بربه الذي هو اكسير الحق ونبراس المعرفة »

* * *

« امام الشعب الاميركي اليوم قضايا جوهرية عليه ان يندبر درسها بحكمة وفهم ، لكي ينتفع بها ، وينفع الناس بواسطتها . وفي مقدمة ما يحتاج اليه هذا الشعب في درس هذه القضايا طهارة الروح وسلامة النية — مما لم يسبق له مثيل في تاريخ هذه البلاد . كنت أود ألا افتح ابواب هذا الموضوع الذي يظهر نقصاً شائناً فينا لولا شديد ثقتي بالدواء الشافي الذي في كلمة الرب المبنيــة على أسسها مدارسنا وافكارنا جميعاً . فاذا لم نستمد قوتنا من معين الدين النقي فليس لنا أين نستمدها في العالم . لان العناية الالهية المدبرة حياتنا هي أساس لجميع أعمالنا ، وليس بيننا من يستطيع ان يكون أساساً لذاته مالم يتخذ هذه العناية الفائقة عضداً له ، فيتناول عطاياها الخالدة من مصادرها الحقيقية .

« واني ارغب الى جميع الواثقين بي ان يمعنوا في درس هذه القضية الهامة في حياتهم . فقد تمكنت ، ببركات الله ودرس الكتاب المقدس ، من الحصول على قوة بالغة استطعت بواسطتها على الوقوف في وجه مصائب متنوعة كانت وما زالت تحل بي فاجوز بها ظافرا لذلك يلذ لي ان ادعو كل انسان الى اقتفاء مثالي بعد ان خبرته وأتاني بجايل الفوائد مدة اربع عشرة سنة .

« فان النفس التي تنعشها تأملاتها الروحية في الصباح تستقبل

واجبات النهار ، واعماله، ومصائبه ، وهمومه بعزم ثابت هيهات ان تحلم به النفس التي لا تحفل بتجديد علاقاتها الروحية مع الروح الكلي باستعداداتها الروحية . »

* * *

« ما اتعس الرجل الذي تسول له نفســه انه ليس في ميدان حياته الحديثة متسع من الوقت للتفكير في اسرار نفسه والتأمل في حاجاتها . وما اسعد الرجل الذي لا يجد وقتاً يفكر فيه بأخلاقه وفضائله . انني لا استطيع ان اتفق مع القائلين بان الغاية الاساسية من عمل الانسان على الارض تنحصر في قضاء أيامه ولياليه في السعي وراء تهذيب اخلاقه . لان مثل هذا الرأي يعني ان غرض الانسان الوحيد في الحياة انما هو محبته لذاته وعنايته بها في حين ان محبة الذات يجب ان تنال آخر اهتمامه وعنايته . فالاخلاق في عقيدتي من الفضائل التي لا نحظى بها مباشرة ، بل انما ننالها بواسطة الاهتمام بحاجات غيرنا من الناس . فاذا حملنا الى السعي وراءها مجرد الافتخار بها خسرناها وضاعت علينا ثمراتها اليانعات . ولكن اذا اتممنا واجباتنا نحو الانسانية ، وقمنا بما نحن مدينون به لربنا ، فانما نكوّن بذلك اخلاقاً جديرة بالاحترام لانفسنا ولغيرنا .

« وانه ليؤلم روحي أن اقول ان الدقائق التي نقضيها مفكرين في عناية الله وفي معاني الحياة التي نحياها في هذا الوجود هي قليلة جداً ، لان هذه المدنية الحديثة التي نفاخر بها ، كثيراً ما يجرف بنا

تيارها الى حيث لا ندري ونحن محمولان على امواجه التي تسير بنا مرغمين ، مع اننا نعرف كل المعرفة ان الهواء الذي نتنشقه من جوها سام قتال ، يخنق الطمأنينة الروحية في صدورنا ، ويقضي على بذرة الدين الضرورية لحياة قلوبنا ، وسعادة نفوسنا .

— ٢ —

أقواله في الكتاب

« ان الكتاب المقدس هو كلمة الحياة الخالدة . وكل من يقرأه تتجلى له هذه الحقيقة بوضوح تام . فادرسه باصاح درساً دقيقاً ، ولا تقنع بان تقرأ جملة من هذه وعبارة من هناك فقط ، بل طالع الفصول الطويلة التي تقودك معانيها الى اعماق قلب الحياة . اقرأه بتمعن ، وترو ، تجد فيه الرجال والنساء ، بل والحوادث التي طالما تقت اليها سحابة حياتك كما تاقت اليها نفوس الكثيرين من قبلك . وكلما تعمقت في قراءته ودرس كتبه تسهلت أمامك العقبات الكأداء القائمة في طريقك ، فتبصر لذاتك مسالك الاشرار وطرق الاخيار ، وتميز النافع في الحياة من الضار . هنالك تجد الصفات ، التي تجعل الناس سعداء مسطرة على صفحاته باحرف من نور فتحفرها على صفحات قلبك هكذا : الامانة ، الاخلاص ، الصدق في المعاملة ، النطق بالحقيقة، الاستعداد لتضحية كل شيء في سبيل القيام بالواجب المقدس ، واعظم من كل هذا : الرغبة في الحصول على رضى يسوع

المخلص الوحيد الذي بذل حياته من أجل العالم . وهنالك تجد الصفات الشريرة التي تعمل على تعس الناس فتتعلم كيف تبتعد عنها وتحتقرها وهي محبة الذات ، الجبانة ، الطمع وكل ماهو دنيء خسيس في الحياة فاقرأ هذا الكتاب بما يجب من الرغبة والفهم وانا الكفيل لك بان تكون في طليعة جيش المؤمنين به والواثقين بان كلمة الله الازلية ، لانك بواسطته تهتدي الى المفتاح الوحيد لاقفال قلبك وسعادتك وواجباتك .

* * *

« فالكتاب المقدس قائم في النقطة المركزية لحياتنا ، ومن هذه النقطة تتفجر ينابيع الحياة جميعها . فهو وحده ينبوع الحياة النقي ، الذي لا تنضب مياهه ، وكل الذين يستقون منه ويشربون مياهه الحية يستطيعون ، دون سواهم ، ان يستمروا في جهادهم مستريحين منتعشين .

* * *

« ان تعاليم الكتاب المقدس المغروسة جذورها في قلبي لم تتصل بي من الدروس المدرسية فقط ، بل انما حظيت بها في اثناء اختباراتي الكثيرة في العالم ومطالعاتي لمختلف الكتب والمواضيع المتعددة . لان هذا الكتاب هو المصدر الاوحد للوحي السامي ، بل لاعلان معنى الحياة الحقيقية وايضاح ارادة الله وطبيعة الانسان وحاجاته الروحية . فهو الدليل الصادق لهداية الروح في مجاهل الحياة

وقيادتها في طريق السلام الى مناهل الخلاص . ولو عرفه البشر جيداً وادركوا الغاية التي يرمي اليها لكنا حصلنا من عهد بعيد على تجديد أرواحنا تجديداً كاملا وبلغنا محجة الخلاص التي ننشدها ونحن اليها سائرون .

***

« ان الجزء الاكبر من تاريخ الحرية في العالم يرجع الفضل فيه الى العهد الذي فتح فيه الناس قلوبهم لفهم كلمات الكتاب الخالدة حق الفهم ، فقادوا الانسانية الى ميناء الحرية الحقيقية ، ووضعوا النظم الدقيقة، وقاموا بالاصلاحات الجليلة التي هيأت الافكار للتحرر من قيود العبودية والتمتع بجمال الحكم الذاتي في العالم . لان هذا الكتاب يكشف القناع عن نفوس الناس فيروا ذواتهم مجردين عن كل ما في الارض من المظاهر الفارغة ، وينزع من قلوبهم اشواك الاوهام القديمة المتأصلة في أعماقها ، التي تعلمهم انهم مخلوقات برثت للعبودية وارقاء تجب عليهم الطاعة العمياء لذوي السيادة والسلطان والتقيد باوامرهم في كل مكان وزمان. هو الكتاب الذي يرسم لكل انسان صورة واضحة لذاته الفضلى فيريه انه وكيل صالح، لا مسؤولية عليه نحو بشر على الارض ممن اقامهم على عروش الرئاسة من الحكام والمتنفذين الظلام ، وكيل صالح مسؤول امام ربه وخالقه فقط . وكل من يدرك مثل هذه الحقيقة من ابناء الانسان يقف للحال مرتفع الرأس حراً طليقا أمام وجه الشمس : ومهما كان نوع الحكومة التي

يعيش تحت سلطانها . فهو لا يقصر نظره عليها فقط بل انما ينظر الى ما وراءها ، بل الى ما وراء حياته المعددة الايام ، من القوة الخالدة

« سمعت اليوم عظة بليغة اتحفنا بها أحد الفضلاء الذين معنا الليلة . فقد تكلم في ما لايماننا بالحياة المقبلة من التأثير في حياتنا الحاضرة . وفيما كنت اصغي اليه تمثلت أمام عيني ألسنة النار المندلعة التي التهمت اجساد الشهداء القديسين ، الذين استقبلوا النار فرحين متناسين آلامهم وهم يرددون آيات الحمد والشكر لله ، لانهم بقوته صاروا أهلا للشهادة بان كل ما في هذه الحياة من الطيبات والمسرات باطل زائد ولا يمكن ان يكون بالغاية التي خلقوا لاجلها . ولكن هنالك بيتاً خالداً في السموات ، وضع الرب نفسه أسسه واعده لهم فيما هم ينظرون اليه ببصائر ايمانهم ، تائهين في العالم يتوقعون بلوغ عتبته السعيدة بفارغ الصبر ، وهو الذي شجعهم وبعث فيهم قوة ونشاطا بالغين فلم يخافوا أحداً ، ولم يخشوا بأساً ، ولم ترعبهم الوحوش ولا النار ، لأنهم كانوا يؤدون واجب خدمتهم لربهم . وقد خيل اليّ في تلك اللحظة ان كل شجاعة العالم ، التي دوّنها لنا التاريخ ، قد تجمعت في صدور هؤلاء الشهداء من ابناء الانسان .

« كلنا يعرف ان الحياة البشرية جهاد مستمر وحرب لا تنقطع نارها . ولكن في هذا الكتاب الطاهر منتهى السلام الذي نتوق اليه في جهادنا على الارض ، لانه يوضح لنا موضوع هذا الجهاد والغاية من هذه الحرب . وليس في الحياة سلام افضل من هذا السلام

الذي نجده في ساحات حروبنا الروحية الحامية الوطيس في اعماق قلوبنا وغرائزنا .

« ان هذا الكتاب العظيم لا يعلم تعليما مجرداً من العمل في كيفية صنع السلام لانفسنا ، ولكنه يوضح لنا بالامثال والبراهين كيف نحارب الخطيئة الساكنة في عروقنا والكامنة في كل عضو من أعضاء المجتمع الانساني . ولذلك يجدر بنا ان نتخذه دستوراً اسمى للنفس الانسانية .

« واعجب ما فيه اخلاصه المتناهي في بسط الحوادث مما يضرب على اوتار القلب فيحرك اعمق اعماقه . وبمثل هـذه الدقة يصور أمام عينيك صورة واضحة للخلوص والصدق في الشهادة للحق . ففيه تاريخ الكثيرين من الملوك ، ولكن هل يخطر لك انه يحابي وجه أحد منهم فيبالغ في رفعه الى ما هو فوق الرجل العادي ، كما هو الحال في تواريخ هذه الاجيال ؟ كلا والف كلا ! فقد أورد لنا ترجمة الملك العظيم داود ، الذي جاء من النسل المبارك الذي منه ولد ربنا ومخلصنا . ولكن هل يقدر أحد من المدققين في نقد الكتاب ان يدعي بان الكتاب يطري، هذا الملك فوق المعتاد فيسدل حجابا كثيفاً على سيئاته ويبالغ في تعظيم حسناته كما يفعل مؤرخو هذا الزمان ؟ كلا ؟ فان الكتاب يسطر له كل حسنة وكل سيئة كما بدرت منه ، ويظهر بأجلى بيان انه لم يكن سوى آلة بيد الله ، وانه كان رجلا خاطئا ، انانيا ، شهوانيا ولذلك فهو مزمع ان يحضر الى المحاكمة

في اليوم الاخير ، لا كالملك المعظم ، بل كرجل خاطيء نظير سائر الخطأة . ولذلك أقول بحق ان الكتاب المقدس هو صورة كاملة للقلب البشري معدة لجميع الاجيال ولكل الامم والشعوب: كتاب ينظر الى الفضائل والرذائل وليس الى الملوك والعبيد أو الاغنياء والفقراء ، فيوضح لنا ان الناس قادمون الى المحاكمة بالنسبة الى فضائلهم واعمالهم ، ولا شأن للذكاء والفطنة أو العلم والحكمة في ذلك اليوم .

* * *

« أما العهد الجديد فهو ترجمة صادقة لحياة المعلم الاكبر يسوع وشهادة عامة الناس الذين تبعوه فعملوا، بما تعلموه من أقواله وافعاله على تجديد ايمان الناس وتحريرهم من قيود العبودية التي كانوا يرسفون بها في ظلمة حالكة من الجهل والغباوة . أجل، بل هو تاريخ انتصار الروح الانسانية الوضيعة باشخاص رجال حقيرين ساذجين .

« ... ان ملايين الناس المتزاحمين على المصالح المادية في العالم ملايين القلوب البشرية المجاهدة لتذليل العقبات القائمة في سبيل بلوغهم الى الرجاء والنور والمستقبل السعيد — لا يستطيعون أن يؤدوا الخدمة المفروضة عليهم في هذه الحياة ما لم يخضعوا ذواتهم لكلمات الوحي المسطرة في هذا الكتاب .

« ولا يظنن أحد ان في قوة الناس ان يفصلوا بين الدين والعمران ، أو ان يهتدوا الى مصدر آخر لرفعة ابناء المدنية الراغبين

في رفعها الى الاوج غير المصدر الذي وضعه لنا يسوع بآياته واقواله المدونة في اسفار العهد الجديد .

* * *

« انني اشفق من صميم قلبي على الذين لا يقرأون الكتاب المقدس ، ولا أدري كيف يفصلون ذواتهم عن القوة والسعادة . فان هذا الكتاب واحد من الكتب العجيبة في العالم . لانك تجد فيه في أية ساعة فتحته ، كنوزاً لم تحلم بها من قبل في الفصول التي طالما قرأتها وقلبت صفحاتها . فان ظروف حياتك والافكار التي تشغل ذهنك في تلك الساعة التي تقرأ فيها — الظروف والافكار التي لا يمكنك ان تحلل أسبابها السرية الاولية — تبعث اشعتها على الصفحة التي تقرأها والعبارات التي تفكر في معانيها فيرتسم أمامك في الحال معنى جديد لم تره قط في حياتك . وليس في العالم كتاب ينطبق عليه هذا القول مثل الكتاب المقدس ، بل ليس في العالم كتاب يؤدي معناه الى فكر الانسان الذي ينشد الحقيقة المجردة كما يؤدي هذا الكتاب معانيه لقارئيه والراغبين فيه . لذلك يجدر بنا ، عند ما نعلم أولادنا ، ألا نكتفي بتعليمهم القراءة التقليدية التي كان آباؤنا يكتفون بها في درس الكتاب ، بل يليق بنا تعليمهم ان يتخذوا الكتاب رفيقاً وصديقاً يحمل الى قلوبهم معانيه السامية وينعش آمال نفوسهم بوحيه العجيب . فاجعلوا أيها الاباء والأمهات كتاب الله رفيقاً لحياة أولادكم وصديقاً لارواحهم والبقية تأتيهم لذاتها . اذ من يجرؤ في

العالم ان يقيد نفساً بشرية بالطريقة التي قيد بها نفسه ؟ أفايس الاجدر بنا والحالة هذه ان نأخذ الذين أنيط بنا أمر العناية بتهذيبهم الى أول الطريق قائلين لهم : هذه هي طريق الحياة : فسيروا عليها باقدام ثابتة كما تشاؤون : سيروا بعزم ولا تلتفتوا الينا لكي تتبعونا ولا تنظروا الينا كمثال يجب عليكم اقتفاء آثاره ، بل فلتكن لكم حريتكم الكاملة في السير كما تريدون على هذه الطريق العجيبة وهي توصلكم الى مدينة النور .

* * *

« في عقيدتي ان الكتاب المقدس نبراس تشع منه أنوار الفضيلة والمحبة . ولكنك لا تستطيع ان تدنو من هذا النور ما لم يجذبك الرب اليه . فانت لا تحضر اليه مسوقا بالسياط ولا بالقسوة والغلظة بل انما تأتي اليه بالمحبة واثقا بانك ستقبل كابن حبيب. ولذلك فانت مقود بشوقك وحنينك . وليس في هذا الاقتراب من أثر للخوف بل هو علاقة شخصية بين الانسان وخالقه — والعلاقة الشخصية أساسها المحبة .

* * *

« ان كل ما نرمي اليه من أعمالنا وأقوالنا للشبان والشيوخ على السواء انما هو نتيجة لرغبتنا في ان نظهر لهم صورة واضحة لذلك الانسان الكامل الذي يستطيع ان يجتذب أفضل ما فيهم من القوة الى ذاته فيحملهم على حبه باكثر مما يحبون ذواتهم ، ومن ذلك

يتعلمون أيضاً كيف يحبون أخوتهم في الانسانية اكثر مما يحبون ذواتهم . انت لا تستطيع ان توجد محبة كاملة من المعاملة الحسنة ، ولكنك تقدر ان تخلق مثل هذه المحبة بايضاح الصفات المسيحية ايضاحا حقيقياً يتم لك بمساعدة الروح القدس ، وحسر القناع الذي يقنع وجه المعلم الصالح يسوع في نظر الكثيرين من ابناء الانسان. اني أعتقد وثيق الاعتقاد ان الغاية الاولى من وجود الكنيسة وعملها على الارض منحصرة في مساعدة جميع الناس على رؤية الله وجهاً لوجه والشعور بلاهوته العجيب . فاذا وقفنا حياتنا على تحقيق هذه الغاية السامية وعملنا بقلب واحد ونفس واحدة ، معرضين عن ذواتنا الحقيرة ، لرأينا المقاعد مزدحمة في الكنائس والمجتمعات الروحية لانه حيثما تكون النار فهنالك يجتمع حاملوا المصابيح لانارة مصابيحهم . وحيثما تكون القوة فهنالك يجتمع الناس ليأخذ كل واحد منهم نصيبه من كنوزها . فان كل بشر على الارض يشعر في أعماق قلبه بان القوة الوحيدة التي يتوق اليها لتريحه من العناء والنصب في أعماله اليومية،القوة الوحيدة التي تلبس أعماله ثوباً جميلا وتصبغ مآتيه بصبغة العهد الذهبي ، — الذي كانت العظمة فيه اكليلا لجميع الاعمال، وكان الجمال السحري الآخذ بمجامع القلوب كامناً في كل شيء والوحي مرتسما على كل ما في الوجود — هي نفس مايشاهده من علامات الطمأنينة المرتسمة على وجوه المؤمنين الحقيقيين بحياة ربهم وإلههم ومخلصهم يسوع ونعمته الالهية المحببة» .

— ٣ —

اقواله في المسيحية

« ليست المسيحية في العالم لتخلص العالم فقط ، ولا هي فيه لتقوم ما اعوج من نظمه ، وتطهر ما تنجس من مبادئه ، وترفع النظام الذي نعيش بمقتضى نصوصه في هذه الحياة فتجعله اكثر اشراقاً واجزل اثماراً في تجديد حياتنا على الارض . كلا ، ليست المسيحية للمجموع فقط ، فان الفرد هو غايتها الاولى وموضوع تعاليمها . الفرد ضالة المسيحية المنشودة ولا كمال للمجموع بغير كمال الفرد . »

* **

« انني لعلى اتم اليقين بان لتعاليم المسيح المقام الاول في تقدم الانسانية . وربما كانت المسيحية بعقائدها القديمة ذات تأثير على الاجيال الاولى اكثر مما هي على الاجيال الحاضرة . ولكنني اعتقد ان روح المسيحية الحقيقية هي اكثر انتشاراً وظهوراً في حياة الناس اليومية وعباداتهم الداخلية في هذا العصر من اي عصر كان من العصور التي سلفت . وهذه الروح بعينها ستنقي بيادر سياستنا من اشواكها وزوانها وتطهر اشغالنا واعمالنا من اوساخها وادرانها وتوطد دعائم العلاقات الدولية على أسس السلام الراسخة . ولذلك فان في مقدمة ما يدعو الى الفخر في الرجل العمومي ان

يكون مسيحياً باعماله دون اقواله . واني اشعر بسعادة بالغة كلما فكرت في مسيحيتي التي اعلق عليها كل آمالي في التقدم والفلاح .

* * *

« كثيراً ما يعتقد الناس بانه لا يجوز ان يسأل كل جيل من ابناء الانسان عن الغاية من البشارة بالانجيل في العالم . غير اننا اذا رغبنا في ادراك الغاية من وجودنا فانه يجدر بنا ان نسأل نفوسنا في عصرنا الحاضر هذا السؤال الأولي بعينه . فالمسيحية انما جاءت الى العالم لـكي تخلص الانسان من شقائه . ومن حسن طالعنا اننا نعيش في عهد المدنية الحديثة ، نتمتع بثمارها الشهية التي ازهرت واثمرت على شجرة المسيحية الخالدة . لان انبل ما في التاريخ من الحوادث الجليلة انما هو مستمد من المسيح وروحه الطاهرة . وكل ما في المدنية الحديثة من العجائب التي تجعل لحضارتنا ميزة على جميع الحضارات الغابرة انما هي بالحقيقة ثمرة صغيرة من ثمار الـكنيسة المسيحية ، التي بمحافظتها على روح المسيح وتذكار حياته ، وتعاليمه ، وموته ، قد ايقظت في العالم الشعور بالمبادىء الفضلى التي يستطيع البشر بواسطتها ان يخدموا الانسانية جليل الخدمة ويحققوا الغاية التي لاجلها يعيشون على الارض ، وفي ايامنا هذه نجد بنوع خاص ان اكثر اعمالنا العمرانية الـكبرى مدينة في اساسها الى القوة الـكامنة في روح المسيحية .

* * *

« كل حي على وجه الارض يحافظ على وديعة حياته بمقدار ما في خزان شعوره من مياه القوة . وقد جرت العادة في هذا القرن ان يغطى الماء بالحجارة الصلدة فلا ترى تموجاته ولا تسمع خريره. ولكن الماء ، وان حجبته الحجارة الصلدة عن العيون ، فهو كالشعور ثابت في مركزه من النفس يقوم بوظيفته فيأتي بالأثمار اليانعة اللذيذة. وفي عقيدتي ان اقدس ما على رجل الدين من الواجبات الانسانية ان يحطم هذه الحجب والاغطية القاسية الغليظة التي تحجب مياه النفس ويصرخ بالناس قائلا : « هنا تجدون الماء الحي الذي يروي ظمأ حياتكم — هنا تجدون ارواحكم التائهة عنكم ! » بمثل هذه الطريقة يجدر بالوعاظ والمبشرين ان يظهروا الله للناس : بكشف الغطاء عن ارواحهم ، وتأييد حقيقة ما يقولون بما يعملون ، وتجديد بناء المملكة الروحية الواصلة ارواح الناس بعضها ببعض ، والمناداة في كل يوم وفي كل ساعة ، من على المنابر ، وفي الشوارع والساحات ، في كل زمان ، وفي كل مكان ، بانه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، كلا ولا بالاصفر الرنان او الفكر المادي او العلم المحدود يعيش ابناء آدم على الارض ، وان الانسان ليس بالمخلوق المتضور اللاهي عن مجاعته ، بل هو مخلوق متضور جوعاً روحياً يعرف مقدار شقائه ولكنه عاجز عن هضم المواد الصلدة المتحجرة التي يضعها العالم في فمه ولا سبيل الى ابتلاعها وهضمها ما لم تبللها مياه الروح الحية والمحيية . قد يكون هذا واجباً يصعب القيام به ، بل قد يقصر عنه

افضل البشر . ولكنني اغبط النشء الجديد الذي ورث القيام بهذا الواجب كما ينبغي ويليق به . فاطلب اليكم ايها الشبان ان تعيروا الموضوع حقه من التأمل والاحترام ، فلا تتلهوا به في منتدياتكم بل اذيعوه للجميع ، ونادوا به في الاوقات الملائمة ، واظهروا للناس الحاجة الماسة الى معرفة هذه الحقائق اذا كانوا يودون ان يعرفوا حقيقة ذواتهم . لانني اعتقد ان البشارة بالانجيل انما هي البشارة بخلاص العالم باسره كما هي خلاص الفرد لوحده واما التعليم القائل بوجوب الهرب من التجربة والابتعاد عن الناس للوقاية من شرورهم فهو تعليم غريب لا اهمية له ولا فائدة منه . لان اعتزال الانسان في الجبال وابتعاده عن الاماكن المدنسة للمحافظة على طهارة نفسه، كما علمت الاجيال المظلمة وكما يعلم بعضهم حتى اليوم ، انما هو تعليم لا أثر للمسيحية فيه البتة . لانه اذا كان الناس لايعنون برفع اخوانهم في الانسانية وبذل الجهود الكاملة لانتشالهم من هاوية شقائهم ودناءتهم ، بل يكتفون بالهرب الى حيث ينجون بنفوسهم فانما يظهرون انهم أبعد البشر عن ان يستحقوا رحمة الله : لانهم يقيدون المسيحية بقيود انانيتهم المقوتة ،وكل ماله أقل اتصال بمحبة الذات الكريهة انما هو مناقض كل المناقضة للمسيحية التي بشر بها يسوع . فالمسيحية من ألفها الى يائها ترمي الى غاية واحدة : وهي خلاص العالم بخلاص النفوس الحية فيه . ولا تستطيع نفس ما ان تنجو بذاتها مالم تسكب نهر محبتها في قلوب أخوتها ، لان خلاص

الفرد انما هو جزء من خلاص الجماعة ولا راحة للفرد الا براحة الجماعة . ولذلك يجدر بالانسان ان يشعر في أعماق روحه بان خير فضيلة تسير أمامه نوراً خالداً يضيء طرقه الى جنات الابدية انما تقوم بمعرفته ان خلاصه وسعادته كفرد متوقفان على محبته للعالم أجمع ومشاطرتهم أفراحهم وأحزانهم جميعاً

« ان جمال الانجيل ينحصر في انه بشارة لا تحمل لنا الرجاء العقيم باننا سنكون سعداء بما أودع في صدورنا من القوة والعزم . بل هي بشارة تقدم لنا كل ما يبعث فينا حياة جديدة ، وآمالا مثمرة سعيدة ، وايماناً ثابتاً بان لنا أباً رحيما ، اذا هرعنا اليه وطلبنا منه ما نحن في حاجة اليه فانه يعطينا كل ما نسأله ويسكب في أرواحنا نعمة سماوية تحولنا الى اجزاء حية من روح الله .

— ٤ —

أقواله في الكنيسة والصلاة

« ليست الكنيسة المسيحية مركزاً للانسانية الحية فقط ، بل هي مركز التهذيب ، مركز المعرفة مركز الفلسفة . وهي مركز السياسة الرشيدة أيضاً أو بعبارة وجيزة مركز الشعور والحياة في العالم . لان مهمة الكنيسة المسيحية والكاهن المسيحي منحصرة في ايضاح العلاقات الروحية بين الناس واظهار ما في العالم من مناهج الفضيلة والتقدم ، روحية كانت هذه المناهج أم طبيعية . وبعبارة

أوضح ان هذه المهمة هي بسط نظام الحياة ورسم صورة بسيطة لعلاقة الانسان بهذا النظام. ولا أدري هل في العالم من يقف هنيهة ليفكر في عظم مجاعة العقول البشرية للاطلاع على اعلان واف كاف لناموس الحياة وما في الحياة من القوى المهجورة ؟

« ولذلك يجدر بالكنيسة ان تصرخ بصوت صادق لا تعروه شائبة زلل أو بحة تعصب داعية الى احضانها كل انسان فتعلمه كيف يهتدي الى مركزه في العالم ، وما هي المسؤولية الملقاة على عاتقه والتي لا مناص من القيام بواجباتها ، وتدربه كيف يقاوم التجارب التي تثيرها عليه عواصف حياته الشخصية وكيف يحاربها بكامل قوته ، حتى اذا كان بالحقيقة ذا مركز ثابت أمام وجه الشمس يشعر العالم بمركزه وبالهزة التي يحدثها في أعماقه المبدأ الواحد ، الثابت ، الصالح ، الذي تجسد في نفسه .

* * *

« انني أنظر الى الكنيسة نظرتي الى ينبوع الوحي ومحجة التجدد الروحي . ويدهشني مجرد الافتكار في كيف يستطيع رجل عاقل على الارض ان يجلس في حضرة الله ولا يشعر بالرابطة المتينة التي تربط روحه بروح الله (على مقدار ما تستطيع عقولنا المحدودة ان تدرك وتفهم) ، ولا يرى بأم العين الواجب الذي يقربه من أخوته في البشرية . بل انني لا استطيع أن أفهم كيف يقدر الانسان أن يقسي قلبه وينحدر بعواطفه الى أدنى درجات سلم الانانية وهو

جالس في مكان مقدس يرى فيه ربه متجسداً بمظاهر مختلفة !

« ان بيوت العبادة جميعها مقدسة في عقيدتي فهي مقدسة بما يتكرر فيها من حوادث اهتداء النفوس الضالة في كل يوم. لانه حينما اجتمعت جماعة من المؤمنين معاً للعبادة والصلاة بقلب واحد تحت كنف جناحي الله ، وارتفعت أصواتهم بالحمد والشكر لجلاله تعالى، فهنالك يهبط عليهم من فوق وحي رباني من السماء لا يستطيعون على الحصول عليه في أي مكان آخر . هنالك يقتبل الانسان نظام الحياة الخالد فيوضح له حقيقة الواجب الذي يريه كيف يجب أن يكون وماذا يجب ان يعمل .

« لاجل هذا أنظر الى الكنيسة ، التي يحق لي ان أتم فيها واجبات عبادتي ، والآمال تملأ صدري ، واثقاً باني أرى هنالك بياناً وافياً يساعدني على فهم واجباتي وادراك الحدود التي تنتهي عندها حقوقي .

* * *

كان الرئيس ويلسون مرة يعالج مع رجاله قضية دولية كبرى وبعد ان طالت مباحثهم في وجوهها المعقدة ولم ينتهوا الى نتيجة موافقة نهض كل منهم ، بعد انفراط عقد الجلسة ، وهم بالانصراف فاستوقفهم الرئيس بغتة وقال لهم : « أيها الاخوة ، انني لا اشك في انكم جميعكم مثلي تؤمنون بالصلاة . ان القضية التي طرحت أمامنا للبحث في هذا الصباح لمن القضايا التي تستدعي صلاتكم الى الله

لكي يساعدنا على حلها . فالتمس منكم ان تصلوا وانتم ذاهبون الى بيوتكم وقادمون الى مكاتبكم »

***

— ٥ —

أقواله في يسوع

« ان حكمتنا الحقيقية كائنة في مبادئنا، فالاحكام تتغير من جيل الى جيل ، ولكن المبادىء ثابتة لا تتغير : واكثر المبادىء رسوخا وثباتا العوامل التي تزيد الحياة بساطة وشرفاً . لاجل ذلك أعتقد ان صورة المسيح قد ازدادت رسوخا في اذهان البشر من الساعة التي مات فيها على الصليب شهيداً خالداً لمبادئه .

« ان يسوع هو الشخص الوحيد الخالد في تاريخ العالم ، والكائن الاوحد الذي لا ينتسب الى جيل واحد لانه يخص جميع الاجيال. وهو وحده قد جمع في ذاته الفضلى خلاصة كاملة لحقيقة الانسان في هذا الكيان ولما سيصير اليه في مؤتنف الزمان ، ولذلك فهو بحق رجل العالمين — الحاضر والآتي

***

« يجب على رجل الدين ان يبشر بالمدنية لكل انسان لوحده وليس للعالم أجمع . عليه أن يبشر الفرد بالخلاص لاننا لا نستطيع ان نحب بالفعل الا بواسطة الواحد الفرد الذي جمع بكيانه الواحد

جواهر المحبة ، والمحبة هي دستور الحياة . وهذا الشخص الوحيد الذى نستطيع ان نحب جميع الناس بواسطته هويسوع المسيح

* * *

«الصداقة الحقيقية ارث ملوكي. فهي شقيقة الاخلاص والهيام. ولكنها تنبثق من مصدر اسمى وارفع منهما . لان الاخلاص كثيراً ما يتمامى ولكن الصداقة الحقيقية لا تقدر أن تتعامى . والهيام يدفع المرء الى الجنون والافراط في التضحية حتى ليضيع معها اختياره ، ولكن الصداقة يجب ان تقيم على الاختيار الشخصي حارساً نشيطاً أميناً . فان من واجباتك ان تعمل على خير صديقك ، رضي عن عملك أم لم يرضَ لان المحبة تأمر بالخدمة المجردة عن الغاية وتنهى عن الخدمة لاجل الربح القبيح . ان هذا واجب شاق يعسر القيام به ، ولكنني أعتقد ان القيام به سهل جداً اذا كان المسيح حاضراً معنا يقدم لنا حياته مثلا علوياً للمحبة الكاملة المشرقة بلهيب الاخلاص والتضحية ، وهنالك تتفجر ينابيع التجدد الحقيقية . . فيجدر بنا والحالة هذه ان نسعى وراء تجدد أرواحنا بواسطة المحبة ، بواسطة الغاية الشريعة والامتزاج بكل ما يذكرنا بالباقيات الخالدات ، لان الاكليل الذي ننشده لنكلل به رؤوسنا واحد — سواء طلبناه في ينابيع المعرفة أو الصداقة أو المثال الصالح ، فهو هو اكليل الصداقة والحق .

* * *

« اني انصح الى رجال الدين ان يذكروا الناس بكل ما يفعلونه وما يقولونه ، لان الخلود ليس بالمستقبل فقط ، بل هو في الحاضر أيضاً . لذلك وجب على خدام الانجيل ان يوضحوا للعالم ان في كل مظهر من مظاهر الحياة رباطا يربطها بالابدية، وان حياتنا ليست بالحقيقة سوى صورة منظورة لاختبارات أرواحنا على الارض وان سلوكنا في هذا الوجود المنظور يجب ان يكون نتيجة لتأثير غير المنظورات في حياتنا ، وانه يجب ان نتذكر أبداً العالم الذي لا تصل اليه ابصارنا لئلا تثقل عيوننا وتؤخذ باشراك العالم المنظور وما فيه من التجارب والشرور ، وان يوضحوا لنا ان في كل نقطة من الوجود صورة حية وذكرى سعيدة لربنا يسوع تطوف في الارض من أقصاها الى أقصاها مذكرة العالم ان الله أب لجميع الناس بالسوية وان الانسان أخ للانسان مهما اختلفت اللغات والقوميات والالوان وان جميع الارواح المتغربة في هذا العالم سائرة اليوم أو غداً الى مواطنها الخالدة في الارض الغير المنظورة ، أرض النور والخلود .

* * *

هذه خلاصة مما اقتطفته من أقوال الرئيس الحكيم الذي فارقت روحه الطاهرة أرض الشقاء والمرارة ، وصعدت الى سماء النور والبرارة لكي تتمتع ببركات الابرار وخيرات السماوات — « الخيرات التي لم ترها عين ، ولا سمعت بها أذن، ولا خطرت على قلب بشر ، الخيرات التي أعدها الله للذين يحبون ظهوره »

امير السلام

لوليم برين

لا اراني في حاجة الى الاعتذار اذا تكلمت في موضوع ديني فهو اهم جميع المواضيع التي يعالجها الفكر البشري . فانني لو تكلمت في موضوع شرعي لما ارضيت سوى المتشرعين ، ولو بحثت في علم الطب لما ارضيت سوى الاطباء ، وعلى هذا النحو يرضى التجار عن الكلام في التجارة ، والفلاحون عن درس الزراعة ، ولكن ليس بين جميع هذه المواضيع موضوع واحد يرضى عنه الكل . حتى ان علم الحكومة نفسه ، مع انه اوسع فروع العلوم ، فهو لا يحيط بجميع اعمال الحياة ، والمنخرطون فيه منقسمون بعضهم على بعض ، فلا تقدر ان تتكلم فيه من غير ان ترضي فريقاً وتغضب فريقاً . ومع انني من الذين تخصصوا لدرس علم الحكومة ، فانا اعتقد بكلية فكرى ان الاشياء الهامة في الحياة خارجة عن حدود اعمال الحكومة وا كثرها يتوقف على ما يفعله الفرد لنفسه اكثر مما على ما تفعله الحكومة او تقدر ان تفعله له . وكثيراً ما يكون الناس اشقياء في ارقى حكومات الارض كما يكونون سعداء في اردأ انواع الحكومات

للحكومة نفوذ فعال في جزء من حياتنا في هذا العالم ، ولكنها لا شأن لها بالجزء الاكمل من حياتنا بعد القبر ، اما الدين فانه نافذ التأثير في جميع انحاء دائرة الحياة الغير متناهية ، كما ان له النفوذ

الاول في الجزء الصغير الذى نقضيه على هذه الارض . لذلك ليس في العالم موضوع غير الدين يقدر ان يستولى على اذهاننا ويحملنا على التأمل في اسراره وموحياته .

الانسان ديّن بالطبع ، والقلب البشري ينشد بفطرته خالقه وربه . والناس ، على ضفاف الكنج عبدوا ربهم ، اوصلوا ووجوههم متجهة شطر الشمس ، أو ركعوا أمام الكعبة ، أو اعتبروا الفضاء بأسره هيكلا لهم ، أو اقتبلوا أباهم السماوي بواسطة الخبز والخمر كما في الطقس المسيحي ، فهم بحكم الغريزة يعبدون رباً لهم .

فانا اذا لم نعبد الله ربنا عبدنا ولو إلا أقنناه من صوى

كثير هم المشككون والجاحدون في العالم ممن نعترف باخلاصهم ونحترم صراحتهم ، ولكنني أرى في كل يوم من حياتي فريقاً من الشبان الذين يعتقدون ان الالحاد يحمل صاحبه الى الفخر ، وهم يتكامون واهمين في انه من كال العقل ان يهزأ الانسان بالعقائد والاديان ويرفض الانتماء الى كنيسة أو جمعية دينية . واعجب من هذا انهم يسمون انفسهم «أحرارا» كأن الاعتقاد بالمسيحية يعني العبودية . واني لمثل هؤلاء الشبان المعجبين بالكفر ابعث هذه السطور

ان فريقاً لا يستهان به من الشيوخ انفسهم ينظرون الى الدين نظرتهم الى خرافة يعذر الجاهل المصدق بها ، ولكن المتهذب يجب ان يضرب بها عرض الحائط — لانها وضعت لصغيري العقول وهي لا تليق بابناء العلم والنور! مثل هؤلاء يحتقرون الدين ويهزأون.

بتعاليمه حاسبين من العار عليهم ان يفسحوا لها مقاماً في افكارهم. وهم يدعون لانفسهم التفوق العقلي ولا يحجمون عن التصريح بهذه الدعوى الفارغة . وقد وبخ تولستوي [١] الفيلسوف الروسي الذائع الشهرة أمثال هؤلاء المتظاهرين بالتهذيب بكلمات حادة عند ما أعلن ان العاطفة الدينية لا تتوقف على الخوف من قوات المستقبل الغير المنظورة ، بل انما تنشأ عند التحقيق عن شعور الانسان بكيانه المحدود ضمن الوجود العظيم الغير المحدود واحساسه بصغارته وخطيئته ، والانسان في رأي هذا الحكيم الكبير مهما بالغ في رقيه وتهذيبه لا يستطيع ان يتخلص من هذا الشعور . قد أصاب تولستوي كبد الحقيقة في مايقول : فان الانسان الحكيم يعرف عظم الحدود المحيطة بقوات فكره وعظم اللانهاية التي يعيش فيها ، ولذلك يلجأ الى الذراع التي هي أقوى من ذراعه ، ويشعر بثقل احمال الخطيئة الملقاة على كاهله ، ولذلك يرجع الى الكائن الاوحد البرىء من الخطيئة لكي يريحه من أحماله .

عرّف أحدهم الدين بقوله « انه العلاقة التي يحددها الانسان بينه وبين خالقه » وعرف الأداب بقوله « انها العلامة الظاهرة لهذه العلاقة » وما من بشر بلغ حد الرجولة الا وقد قرر لنفسه علاقة معينة بينه وبين خالقه ، ولذلك نرى انه لا يمكن احداث أقل تغيير في

---

(١) راجع كتابه الشهير في وصف شكوكه وجهاده في الحياة وقد ترجمناه الى العربية وأسميناه « اعتراف تولستوي »

هذه العلاقة بدون ثورة قوية في اعماق الانسان . لان هذه العلاقة هي أقدر القوات النافذة في الحياة الانسانية .

فالدين هو أساس الآداب في حياة الفرد وفي حياة الجماعة . ولكن الماديين طالما جدوا ويجدون في وضع نظام جديد للآداب على أساس المصلحة الشخصية ، فهم يطلبون من الانسان ان يحسب بالارقام الرياضية ، ان في مصلحته الابتعاد عن عمل الشر . وهكذا تراهم يصبغون التضحية بصبغة حب الذات ، فتجيء آدابهم ممتلئة بالعيوب والسقطات . وأول هذه العيوب ان فضائل آداب الماديين مزورة مستعارة من النظم الادبية المبنية على أساس الدين . ثانياً ، يبني الماديون آدابهم على المجادلة المنطقية دون السلطة الالهية ولذلك لا تؤثر آدابهم في الاحداث ، فلا يبلغ هؤلاء السن التي يقدرون فيها على العمل بمنطق الماديين ونظمهم الادبية حتى تفوت فرصة اصلاحهم ويترسخون في ضلالهم وانحرافهم عن جادة الآداب الصحيحة

ان شرائع العالم المتمدن لا تأذن للصبي القاصر ان يتصرف بأملاكه حتى يبلغ رشده فلماذا هذا الضغط على الحرية الشخصية ؟ لان عقل الولد قاصر عن ادراك مصلحته قبل الرشد. وحياة الانسان باسرها انما تبنى على الاساس الذي يضعه له المحيط الذي يعيش فيه في حداثته . ثالثاً ، الانسان لا يقدر ان يعرف البتة كم من أحكامه يرجع باسبابه وعوامله الى فكره ، وكم يرجع منها الى اهوائه وانانيته. ونحن ندرك تأثير الاهواء والمصالح الشخصية عند ما نرفض من

مجالس المحكمين كل من له أقل علاقة بالدعوى المطلوب الحكم فيها .
رابعاً ، ان الرجل الذي يبني آدابه على الحساب الدقيق للمنافع التي ستصيبه بسببها ، انما ينفق في حساباته الكثير من الوقت الذي كان يجب ان يقضيه في عمله . ويندر جداً ان نرى بين ماسكي الدفاتر الدقيقة لاعمالهم الصالحة من يقوم بقدر كاف من أعمال البر ليبرر نفسه تجاه ما انفقه من الوقت في ضبط حساباته

* * *

فالاداب هي قوة الاحتمال والصبر في الانسان ، والديانة التي تعلم بالمسؤولية الشخصية امام الله انما تزيد الاداب العمومية قوة وعزماً وفي الاعتقاد بان هنالك عيناً كلية الاقتدار ، تراقب جميع أعمال الفرد وتميز بين الصالح والطالح منها ، قوة نافذة في تهذيب الانسانية وقيادتها في مناهج الخير والفضيلة

ما اعظم الفرق الكائن بين الرجل الذي يجرب تطبيق حياته على نظام معين للاداب من وضع الانسان وبين الذي يجد في جعل حياته نسخة طبق الاصل لنظام الخالق الكلي الحكمة فالاول يسعى الى الحياة بموجب النظام الموضوع له — لافرق اسمى من افكاره كان هذا النظام أم أحقر منها — واذا كان يصنع الخير عند ما ينظر اليه الناس فقط فانه ولا شك سيجد له وقتاً ، عندما ينظر اليه أحد، فيتخلص من نظم الانسان ويخلو الى شياطينه . ولكن الانسان لا يكون أديباً في كل حركة من حركاته أو عمل من أعماله ما لم يكن

في أعماق قلبه الشعور الداخلي بوجود الله ومراقبته له واذا كان المتسلحون بهذه العقيدة السامية يستسلمون للتجربة حيناً، فكم بالاحرى يقع في هاوية الشقاء والشر اولئك الذين لا رادع ولا وازع لهم سوى قوتهم الخصوصية ؟

ان دون العمل بتعاليم الدين صعوبات كثيرة، ولكن الصعوبات قائمة في طريق كل عمل من أعمال الحياة فقد مرت بي أوقات عصيبة من الشك والالحاد عند ما كنت في الكلية ، ولكنني ما برحت اشكر الله لانني كنت عضواً في الكنيسة قبل ان تركت بيتي وأتيت الى المدرسة لان تعاليم دياناتي التي تلقنتها في حداثتي قد ساعدتني كثيراً للتغلب على شكوكي الكثيرة في تلك الايام السوداء . لان الاعوام التي يقضيها الشاب في الكلية محفوفة بالاخطار فانه بين جدرانها يشرع في الحصول على قواته الحقيقية في حياته، وفيها يشعر بقوة لم يشعر بها من قبل ولن يشعر بمثلها، ويعتقد انه يعرف اكثر مما عرف وسيعرف سحابة الحياة

في تلك الايام القاتمة شعرت لاول مرة بانني هائم في صحراء الآراء المتضاربة في الخليقة ، وقد فحصت هذه الآراء الكثيرة بدقة فوجدت انها باسرها تفترض وجود علة اولية تتخذها بداءة لمباحثها فهنالك الغرض السديمي مثلاً الذي يقول اتباعه بوجود المادة والقوة — المادة في ذراتها غير المتناهية المنفصلة بعضها عن بعض بالفضاء الوسيع

الغير المتناهي . وفي تعليم أصحاب هـذه النظرية ان القوة في البدء اوجدت الوجود بكامله بعملها الكائن في المادة . كل هذا جميل ، ولكن طالما ان المسئلة تحتاج الى الغرض فانا أعتقد انه يحق لي ، وينطبق على وجداني بالاكثر ، ان وراء كل صورة مصوراً صنعها ، وان وراء الخليقة خالقا برأها . ومهما بالغت في وصف الطريقة التي نشأ بها الوجود وقياس الزمان المحسوب بملايين السنين التي تم فيها خلق العالم ، او نشوؤه كما يقولون ، فانت لا تستطيع ان تحولني قيد شعرة عن ايماني بان كل هذا قد تم بارادة الخالق الحكيم . فقد جاء في سفر التكوين انه في البدء خلق الله السماوات والارض ، وانا ثابت في اعتمادي على هـذا الغرض حتى أجد غيره ينطبق على وجداني اكثر منه ويرجع في خلق السماوات والارض الى ماوراء « البدء »

انني من المؤمنين بنظرية النشوء التدريجي، ولكنني لا اتطرف في اعتقادي بها كما يفعل غيري . لانني لم استطع ان اقنع نفسي بان الانسان نشأ من الحيوانات الدنيئة . وانا لا ارغب في تسفيه رأيك اذا كنت تريد أن تقبل مثل هذه العقيدة ، ولكن كل ما أود أن أوضحه لك الآن انك اذا شئت ان ترجع بنسبك الى القرود، وتفاخر بان يكون القرد جدك الاول ، فالمرجو من فضلك ياصاحبي ان تحذف اسمي من قائمة هذا النسب الشريف لانني لم أر حتى الساعة دليلا

صادقا لحملي على مثل هذا الاعتقاد [١] وليس شك عندي في أن الانسان يشبه الحيوان في كثير من رغباته الجسدية، ولكن للانسان فكراً كما أن له جسداً ، وله نفس كما له فكر . والفكر أعظم من الجسد، ولذلك فاني اعترض بكل قوتي على ان يقصر البحث في حقيقة الانسان على ثلث واحد مما فيه — وهو جسده — الثلث الدنيء بالنسبة الى الثلثين الآخرين، وهما الفكر والنفس وقد أصاب فربرن (Fairbairn) كبد الحقيقة حيث يقول انه ليس بالكافي ان نوضح تاريخ الانسان كحيوان فقط، بل يجدر بنا ان نوضح حقيقة الانسان من تاريخه . ولكن نظرية دروين (Darwin) لا تفعل ذلك فالقرد بحسب هذه النظرية وجد قبل وجود الانسان ، ولكنه وياللعجب ما برح قرداً حتى اليوم ، أما الانسان الذى نشأ عنه فقد أصبح سيد المدنية العظيمة المحيطة بنا وهى من نتاج فكره

ان اقتبال هذه النظرية لا ينقذ الانسان من الامرار والمعميات، لانها لا تستطيع ان توضح له أصل الحياة فاذا عمد المؤمن بتعليم دروين الى تتبع جرثومة الحياة الى أدنى المظاهر الاولى التي ظهرت بها — وهو يحتاج في هذا العمل الى ايمان أعظم كثيراً جداً من

---

(١) قال الشاعر العربي بهذا المعنى وارجح ان القائل هو استاذي جورج افندي عطيه :

أتاني صاحب لي ذات يوم يقول علمت ان القرد جدي
فقلت له علمنا ذاك قبلا فأبشر انت قرد وابن قرد

الايمان الذى يطلبه منه الدين — فهو ولا شك واجد ان العلماء يختلفون في تقرير هذه القضية . فهنالك الذين يعتقدون ان جرثومة الحياة هبطت الى الارض من احدى السيارات الاخرى، وهنالك الذين يعترضون قائلين انها نشأت لذاتها بطريق الصدفة !

واني لو خيرت في قبول احدى هاتين النظريتين لما ترددت هنيهة في قبول الاولى منهما . لاننا اذا كنا نقدر ان نفترض وجود الحياة بشكلها الاول خارج سيارتنا هذه فاننا نستطيع اذ ذاك ان نبني على هذا الافتراض كل ما جاء بعده من تاريخ الحياة ولا يستطيع احد الى معارضتنا سبيلا . ولكن اذا سلمنا بالنشوء بطريق الصدفة ، فاننا نضل اذ ذاك عن ايضاح السبب الذي لاجله حدثت هذه الصدفة مرة واحدة وهي لم تحدث قط بعد ذلك .

مما رجعنا في تاريخ الحياة الى الوراء فنحن لا نقدر ان نتخلص من عمل الخليقة ، واني قادر بملء السهولة ان اؤمن بان الله خلق الانسان ، كما هو الان ، كما اني قادر ان اؤمن انه منذ ملايين السنين خلق جرثومة الحياة بادنى مظاهرها وحباها القوة الكاملة على النشوء والتطور حتى اصبحت على ما نراها اليوم من النمو والكمال . ولكنني اعترض على النظرية الدروينية حتى يقوم عليها برهان اكثر انطباقا على العقل من البراهين الحاضرة ، لانني اخاف ان نخسر شعورنا بحضور الله في حياتنا اليومية اذا قضي علينا الغرض بانه ما من قوة روحية لامست حياة الانسان او عملت على رقي الامم

والشعوب على مر جميع الاجيال . فالنظرية الدروينية تمثل الانسان انه قد بلغ رقيه الحاضر بقوة شريعة البغض وعملها الشريعة القاسية التي تعلم ان تنازع البقاء يقضي بحياة القوي وموت الضعيف . فاذا كانت هذه هي شريعة نمونا وتقدمنا ، واذا كان ثمت من منطق يستطيع ان يقيد الفكر البشري ، فنحن يجب ان نرجع الى الحيوان بالنسبة الى شعورنا بما بين البغض والمحبة من الفرق . وكيف يمكن ان يكون البغض شريعة للنمو الانساني في حين ان الامم لم تتقدم الا بالنسبة لاعراضها عن هذه الشريعة واستبدالها بشريعة المحبة ؟

* * *

على ان اعراضي عن النظرية الدروينية لا يضطرني الى مجادلتك في شأنها اذا كنت من القائلين بها ، ولكنني اشرت اليها لاذكرك بانها لا تحل احجية الحياة ، ولا تفسر اسرار التقدم الانساني . غير ان من الناس فريقاً قبلوا هذه النظرية لانها تخلصهم من الايمان بالعجائب ، ولكن ما الذي يرعبنا في الايمان بالعجائب ؟ قد كان لي في عهد شكوكي مثل هذا الموقف ، ولذلك اعتقد ان العجائب من اهم ما يحسبه المعارضون المسيحية عقبات كأداء في سبيل المسيح .

نحن لا نستطيع ان نفصل المسيح عن العجائب : لان ولادته ، وخدمته ، وقيامته وكل حوادث حياته ممتلئة بالعجائب ، والتأثير الذي تحدثه ديانته في قلوب الناس هو اعجوبة فائقة متكررة في كل يوم . فاذا جردنا حياة المسيح من عجائبها امست شخصيته كشخصية

كل منا وزال من انجيله كل ما فيه من السلطة العلوية .

ان العجائب تبسط امامنا سؤالين هامين في الحياة ، اولاً : « هل يقدر الله ان يصنع عجيبة ؟ » ثانياً : « هل يريد الله ان يصنع عجيبة ؟ »

الجواب على السؤال الاول بسيط . فان الاله الذى يقدر ان يصنع عالماً عظيما كالعالم الذى نعيش فيه هو ولا شك قادر ان يصنع بهذا العالم ما شاء كما شاء . والقوة الضرورية في اجتراح العجائب داخلة طبعاً ضمن القدرة على الخليقة . ولكن « هل يريد الله ان يصنع العجيبة ؟ » — هذا هو السؤال الذي نشأت عنه اكثر الشكوك . وكلما بالغت في البحث والتفتيش عن جوابه اراني اقرب الى الجواب بالايجاب مني بالسلب . فالقول بان الله لا يريد صنع العجائب يدل على ادعاء معرفة اعمال الله ومقاصده ، وهذا أمر لا استطيع ان ادعيه لنفسي . لذلك لا انكر ان الله يصنع العجائب ، او يريد او يقدر متى شاء ان يصنعها ، لانني لا اعرف كيف او لماذا يصنعها .

كلنا نتعلم بغير انقطاع الحقائق الجديدة والقوات التي لم نحلم بها من قبل ، وانا من هذه الحقيقة دليل واضح على ان الله قد يعمل ، بقوات ، ما برحت مجهولة لدينا ، والاسرار العظيمة التي تعرض امامي في كل يوم من ايامي تعلمني وتوضح لي ان الايمان ضروري لوجودي ككل حاسة من حواسي . من من ابناء الانسان منذ قرن واحد

كان يصدق القصص الغريبة التى يحدثنا بها المشتغلون بالـكهربائية اليوم ؟ قد عرف الانسان البرق على ممر الاجيال العديدة ولـكنه لم يعرفه الا ليخافه وترتعد منه فرائصه . ولـكن هذه القوة الغير المنظورة تستثمر منافعها اليوم آلات من صنع الانسان وتسجنها اسلاك من نتاج الفكر البشرى فتسخرها في خدمة الناس وقضاء حاجاتهم ، بل قد تمكنا بواسطتها من الاستغناء عن الاسلاك وارسال كلماتنا على متون امواج الفضاء ، واستطعنا بواسطة اشعة اكس ان نرى من خلال المواد التى كانت قبلا حاجزاً كبيراً في سبيل نظر اجدادنا . فالعجائب المسيحية ليست باغرب من الاعمال الـكثيرة التى يقدم بها الناس اليوم بقوة الـكهربائية السرية — ولـكنها تختلف عنها اختلافا بسيطا . فالحبل بلا دنس ، مثلا ، لا يحيط به من الاسرار اكثر مما يحيط بغيره من النظريات الـكهربائية ، ولـكنه يختلف عنها بمظهره وهو يرجع معها الى سر قوة واحدة : وليست قيامة المسيح باعجب من ملايين القيامات المتنوعة التى تمثلها البزور بقيامتها من قلب الارض !

طالما نسمع اعداء العجائب يقولون ان الله لا يستطيع ان يوقف شريعة من شرائعه في الطبيعة عن العمل من غير ان يعطل عمل كل الشرائع الاخرى التى في الوجود ، ولـكن لنتأمل في الانسان وسيادته على شرائع الجاذبية في كل يوم من حياته . فنحن كلما حركنا اقدامنا او رفعنا ثقلا عن الارض انما نتدخل تدخلا موقتا

في عمل اعظم شرائع الوجود — وهي شريعة الجاذبية — ولكن العالم لا ينزعج لعملنا ولا تتعطل شرائعه باسرها كما يزعم المعارضون

قد اوضح لنا العلم اموراً كثيرة كانت أسراراً غامضة في حياة ابائنا فحملتنا كثرة معلوماتنا الحديثة على الاعتقاد باننا نعرف كل شيء . والحقيقة التى لا مرية فيها ان هنالك عالما لاحد له من غير المعروف الذي يجب ان نتعلمه رويداً رويداً وكل ما نعرفه الان يجب ان يقف بنا موقف الاحترام والاعجاب امام ما لا نعرفه عوضا عن ان يوقفنا وقفة الغرور والادعاء . وعلى وفرة ما اظهره لنا العلم من اعمال العالم فهو ما برح عاجزاً عن ايضاح سر الاسرار العظيم — الا وهو سر الحياة . فهو في كل وريقة عشب ، وفي كل حشرة وكل طائر وكل حيوان كما هو في الانسان . ومع انه مضى على التاريخ المدون في بطون الاوراق نيف وستة الاف سنة فاننا لا نعرف اليوم عن سر الحياة اكثر مما عرف الذين عاشوا في بداءة التاريخ . فنحن نعيش ونضع النظم المختلفة لحياتنا ، ولكل منا آماله ومخاوفه ، ولكن الجميع معرضون في كل ثانية للتغيير الفجائي الاخير في حياة اجسادهم والرجوع بها الى التراب الذي منه أخذت . فما المعنى من كل هذا ؟ نحن لا نعرف بالتحقيق جوابا على هذا السؤال ، ولكننا نعرف ان تقدم الجنس البشرى والمدنية التى نتمتع اليوم بثمراتها الشهية كل هذا هو نتيجة لجهود الرجال والنساء الذين لم يستطيعوا ان يحلوا سر حياتهم .

وهنالك طعامنا ! افهل من الواجب ان ندرك اسراره قبل ان نتناوله ؟ اذا رفضنا ان نأكل طعاما مالم نعرف سر نموه فنحن ولا شك نموت جوعا . ولكن الاسرار لا تزعجنا في غرفة الطعام ، لانها قلما تعترض أفكارنا الا في الكنائس والمجامع الروحية .

حدث لي مرة انني كنت أتناول قطعة من البطيخ الاحمر وانا أتأمل في جمالها منذهلا . وبعد ان أكلتها آخذت كمية من بزرها وجففته ، ثم زنته فوجدت ان كل خمسة آلاف بزرة تزن نحو ليبرة واحدة . ثم نظرت الى البطيخة البالغ وزنها أربعين ليبرة وامعنت في درسها بطريقة حسابية . واليك النتيجة التي وصلت اليها :

ان واحدة من هذه البزور توضع في قلب الارض فلا تشرع في عملها الا بعد أن تنال قسطها من حرارة الشمس ورطوبة المطر : وهي تجمع في اثناء ذلك قوة عجيبة تخرج بواسطتها من قلب الارض وقد تضاعف وزنها مائتي الف مرة . وفوق كل هذا فهي تغلف خارجها بثوب أخضر جميل وتبطنه بمادة بيضاء ثم تكوّن داخل ذلك المادة الحمراء الجميلة المزينة بالبزور في كل ناحية من انحائها ؛ وهذه البزور تقوم في الوقت الملائم بنفس العمل الذي قامت به أمها قبلها . فمن أين تحصل هذه البزور على قوتها العجيبة ؟ وأين تجد مادتها الملونة ؟ وكيف تجمع عصيرها اللذيذ ؟ كيف تنمو من بزرة حقيرة الى بطيخة كبيرة ؟ فاذا كنت لا تستطيع أن توضح اسرار البطيخة فكيف تقدر ان تحدد قوة الله أو ان تعرف ماذا يريد أن يفعل

وكيف يقوم باعماله ؟ انني لا اقدر ان أوضح أسرار حياة البطيخة والكنني استلذ طعمها

كل ما ينمو في الوجود يحدثنا بعجائب القوة الغير المحدودة . فلماذا يجب ان انكر ان يداً مقدسة اطعمت خمسة آلاف نسمة من خمسة ارغفة وسمكتين وانا أرى أمام عيني في كل يوم مئات الملايين من الاحياء تطعمهم يد قوية تحول بطريقة سرية جميع البزور المنتشرة في الحقول الى حصاد كثير ؟ نحن نعرف ان الطعام يتضاعف ويتزايد في بضعة اشهر ، أفبل يجوز لنا والحالة هذه ان ننكر ان للخالق قوة على اختصار مسافات الزمان بعد ان اظهرنا ، بقوة عقولنا ، مقدرتنا على اختصار ابعاد الفضاء ؟

ولكن هنالك ما هو أعظم من كل هذا — وهو التغيير الذي يطرأ على قلب الانسان عند ما يشرع في بغض ما أحبه من قبل وحب ما سبق فابغضه ، هذا التجدد العجيب الذي يعرض على حياة الانسان الذي بعد ان كان يضحي العالم باسره في سبيل تقدمه أصبح ، بما حصل عليه من التغيير ، يعد نفسه سعيداً بان يخسر حياته في سبيل مبدأ نبيل يعتقد صحته وصوابه . وهل في العالم قوة اعجوبة أعظم من هذه تستطيع ان تحول الانسان من أناني ممقوت الى روح عطوف تشع منها أنوار الاعمال الصالحة الى كل جهة ؟ مثل هذه الاعجوبة تُصنع في قلوبنا كل يوم ، ونحن قد رأيناها في قلوب معاصرينا . ولذلك اصرخ بأعلى صوت قائلا : ان حياتي المكتنفة

بالاسرار والعجائب لا تقدر أن تحرمني من ثمرات الدين المسيحي الذي اؤمن به بكلية قلبي .

* * *

والذين يعترضون على العجائب يعترضون أيضاً على الفداء: فهم يصرحون بان الرأي القائل بموت الفرد لاجل الجماعة لا ينطبق على العدالة التي يعرفون . ولذلك يقولون : فليحمل كل انسان مسؤولية خطيئته ولينل ما يستحقه من العقاب بسببها . ولكن عقيدة الآلام الفدائية ليست بالجديدة في تاريخ الانسان بل هي قديمة العهد جداً . والمبدأ القاضي بآلام الفرد لاجل المجموع هو مبدأ عام نرى أثره ظاهراً في كل يوم من حياتنا على الارض . خذ الاسرة مثلا : فان الأم من ساعة ولادتها لطفلها الاول الى أن يبلغ أولادها العشرين والثلاثين قلما يفارقون افكارها المستيقظة ، فهي لاجلهم تضحي نفسها ، وفي سبيل راحتهم وسعادتهم تنكر راحتها وسعادتها . أفهل تفعل الام كل هذا لمجرد رغبتها في ان يدفع لها ابناؤها لقاء عملها أجرة باهظة في المستقبل ؟ سعيد هو الاب ، وسعيد هو الابن ، اذا كان الثاني يقوم ولو بجزء صغير مما عليه من الواجب نحو الاول . ولكن ما من ولد يستطيع ان يكافي والديه على ما بذلاه من العناية بتربيته . ولكن الطبيعة تدفع الدين — ليس للوالدين — بل للجيل المقبل ، لان كل جيل من ابناء الانسان انما يجاهد ويضحي للجيل الذي يأتي بعده .

هذه حقيقة لا تقتصر على الاسرة فقط ، ولكن كل خطوة في سبيل التقدم انما وصل اليها الانسان بواسطة المستعدين للتضحية في سبيل المصلحة العامة . فالعالم لم يحصل على حرية الكلام أو حرية الاقلام أو حرية الفكر والحكم الا بتضحيات الافراد في سبيل مصالح اخوانهم في الانسانية . وان هذه الحقيقة ثابتة الاصول في حياتنا حتى اننا لا نحسب الانسان جديراً بالعظمة الحقيقية مالم يستصغر مصلحته الخاصة تجاه المصالح العامة والقضايا الانسانية .

ومن انصع الحقائق التي وجدتها للبرهان على ان الانسان مخلوق على صورة الله ومثاله هي الحقيقة التي اظهرها لنا التاريخ : ان الانسان منذ وجد على سطح هذه الارض وهو يعرض صدره للاخطار والموت نفسه حتى ان البركات التي حرم من التمتع بها يتمتع بها أولاده واحفاده بعده .

قد يظهر لك لاول نظرة ان الآية القائلة : « من أراد أن يخلص نفسه فليهلكها ، ومن أهلك نفسه من أجلي فهو يجدها ، » تخالف الواقع بعضمونها . ولكنها بالحقيقة خلاصة موجزة لجميع حوادث التاريخ . فان الذين يعيشون لانفسهم فقط انما يعيشون معيشة ضيقة دنيئة ، ولكن الذين يقربون حياتهم ضحية على مذبح الاعمال التي هي أعظم منهم هؤلاء يجدون في النهاية حياة انبل واشرف بما لاقياس له من حياتهم .

وقد عبر وندل فيليبز Wendell Phillips عن هذه الحقيقة

بقوله : « ما أحمق الذين يسيرون الى قبورهم متجلببين بأردية النسيان الابدي ، وما احكم الذين يخسرون انفسهم في حياتهم ليعيشوا في عالم الخلود الى الابد . »

أجل ، ان نظام الخلاص لا يخالف الشرائع الطبيعية بل هو على أتم الاتفاق معها كما نعرفه ونفهمه فالتضحية هي قوة المحبة ، والمسيح ، بآلامه من أجل العالم ، قد اعتمد هذه الوسيلة الواحدة للبلوغ بها الى القلوب الانسانية . ولا يقتصر ظهور هذه الحقيقة على الخيال فقط ، بل هي ظاهرة بالاختبار والعمل ، لأن تاريخ حياة المسيح وتعاليمه وآلامه وموته قد ترجم الى كل لغة أمام وجه الشمس وقد لامس قلب الانسان في كل زمان ومكان .

على انه لو قضي عليّ ان أقدم دليلا على ألوهية المسيح فانني ما كنت ابدأ بالعجائب ، ولا بالسر المحيط بحياته ، أو الفداء العظيم الذي قام به . ولكنني كنت ابدأ كما بدأ كرنيجي سيمبسون Carnegie Simpson في كتابه المعروف « حقيقة يسوع » فان هذا الاديب ، بعد ان بدأ بالحقيقة التاريخية عن حياة المسيح في العالم ، اظهر ان الانسان لا يستطيع ان يطلع على هذه الحقيقة مالم يشعر في أعماق قلبه بان لهذه الحقيقة علاقة لا بد منها مع الاحياء العائشين في عصرنا الحاضر . ومما يقوله ان الانسان يقدر ان يطالع تاريخ الاسكندر ، وقيصر ، ونابليون ، ولكنه لا يشعر لدى مطالعة تراجم هؤلاء العظماء ان في حياتهم واعمالهم ما يتعلق بحياته أو يهمه

بصورة خاصة : ولكنه اذ يقرأ حياة يسوع وموته يشعر شعوراً خفياً برابطة متينة تربط حياة هذا المعلم العظيم بحياته رباطا محكما لا تفكه أقدر قوات العالم . وهو يشعر أيضاً في اثناء درسه لحياة المسيح وتعاليمه بفضائل ظاهرة أمام عينيه لا يستطيع الى الهرب منها سبيلا : كالطهارة ، والتواضع ، والوداعة ، والصفح والمحبة التي لا يستقصى أثرها .

قد أصاب هذا المؤلف كل الاصابة في كلامه . فان المسيح يقدم لنا بحياته مثالاً كاملاً للطهارة بالفكر والقول والعمل . والمرء إذ يشعر بنقصان اخلاقه ، ويحزن على ضعفه وشروره ، يجد امامه في هذا المثال الصالح ، وحياً صادقاً في المعلم الذي كان مجرباً في جميع الامور مثلنا ولكنه حفظ نفسه بريئاً من الخطيئة واني لواثق باننا نجد في هذه الحقيقة خير محك لاختبار شخصية الانسان ومعرفة مقدار بعدها أو قربها من شخصية المسيحي الحقيقي . فاذا وجد الانسان في كمال المسيح وترفعه عن الخطية وحياً يرفع حياته ويحمله الى السعي وراء الحياة المجيدة الصالحة من غير انقطاع ، فهو بالحقيقة تلميذ حق يقتفي خطوات المعلم الصالح ، ولكنه اذا رفض التوبيخ الذي توجهه نحوه طهارة حياة يسوع ، فهو ولا جرم يرفض للايمان بلاهوت المسيح لكي يبرر نفسه في اعراضه عن الايمان به والعمل بمبادئه الخالدات .

* * *

والتواضع فضيلة نادرة ، لان الغني معرض للعجب بثروته ، والشريف الحسب يفاخر ، بنسبه والمتعلم بعلومه ، والمتواضع نفسه كثيراً ما يكون ميالا للفخر بتواضعه . ولكن المسيح لم يكن متكبراً ولم يفاخر بقوة من قواته مع انه كان حائزاً افضل ما في الحياة من الفضائل ، ولذلك اظهر سحابة حياته على الارض انه هو المثال الاكمل للتواضع .

واصعب الفضائل واكثرها مشقة هي فضيلة الصفح والروح السموح . لان محبة الانتقام غريزة ملازمة للقلب البشري ، والرغبة في رد كيد العدو ومقابلته عن شره بمثله خطيئة عمومية يرتكبها جميع الناس . لذلك نرى الانسان في جميع ادوار التاريخ يفاخر بانه لا يبات على الضيم ولا ينام عن مقابلة العين بالعين والسن بالسن ، فنقرأ على انصاب الابطال ان الذي أقيم النصب لتخليد ذكره قد كافأ اصدقاءه واعداءه كلاً بما يستحقه . ولكن هذه الروح لم تكن روح المسيح . فقد علم بالصفح عن الاساءة ، واظهر بالصلاة الخالدة التي تركها لنا ، المثل الاسمى لجميع تضرعاتنا اذ علمنا ان نطلب من الاب السماوي ان يجعل غفرانه لخطايانا معادلاً لغفراننا لخطايا المسيئين الينا . وهو لم يقصر المسئلة على التعليم فقط ، بل أيد تعليمه بعمله وبكل حركة من حركاته على الارض . وعندما قاده مضطهدوه الى شر انواع الميتات الرديئة نرى روحه الصفوح ، تتعالى فوق آلامه المريرة ، فيصلي قائلاً :

« يا أبتِ اغفر لهم ، فانهم لا يعرفون ما يفعلون ! »

وقد بنى المسيح جميع تعاليمه على اساس المحبة . ومع ان العالم عرف المحبة قبله — لان الوالدين احبوا ابناءهم ، والابناء احبوا والديهم ، والزوج زوجته والمرأة رجلها ، والصديق صديقه — فان يسوع ألبس المحبة ثوباً لم تلبسه قبل ايامه . فقد كانت محبته لا قرار لها ولذلك تجاوز بها حدود المحبة القديمة حتى ان الاعداء انفسهم لم يخرجوا من دائرتها . ان المعلمين الذين جاؤا قبله وضعوا لفضائل اتباعهم والمؤمنين بتعاليمهم القواعد والرسوم لتنظيم حياتهم ، ولكن يسوع رغب قبل كل شيء في تنقية القلب من جميع شروره واهوائه وغرس بذور المحبة فيه لتكون دليله الاوحد في جميع مسالكه .

وما هي النتيجة التي نستطيع ان نستخلصها من حياة هذا المعلم العظيم ومن تعاليمه وموته وقيامته ؟ فقد نشأ في دكان النجارة ، ولم يحصل من المعرفة الا على القليل من كتب التوراة ، ولم يتعرف الى الفلاسفة الاحياء في زمانه ، ولا اطلع على كتب الحكماء الذين جاءوا قبله ، بيد انه استطاع ان يجمع التلاميذ حوله ، وهو شاب في مقتبل العمر ، ويضع أسمى نظم الاداب التي عرفها الانسان منذ وجوده على الارض . فاعلن للناس انه هو مسيا المنتظر ، وعلم واجترح المعجزات مدة ثلاث سنوات ، بدأت في عرس قانا الجليل وانتهت على تلة الجلجلة . وبعد موته تفرق تلاميذه في جميع

انحاء العالم فاستشهد اكثرهم في سبيل تعاليمه ، وقد اعترض العالم على مبادئه الجديدة ، فانكروا قيامته واضطهدوا المؤمنين به ، ولكن ديانته ،على رغم كل هذا ،انتشرت من هذه البداءة الصغيرة حتى صار الملايين من الناس يذكرون اسمه بالاعجاب والاحترام، وآثرت الالوف ومئات الالوف الموت والتعذيب على رفض التعاليم التي غرس بذورها في قلوبهم . فكيف يجب ان ننظر اليه ؟

ماذا تفكرون في المسيح ؟

ان الايمان بالوهيته اسهل جداً في عقيدتي من ايضاح اقواله واعماله بالطرائق البشرية . وقد ازددت ايماناً بهذه الحقيقة بعد ان زرت بلاد الشرق وشاهدت فيها الجهاد العظيم الذي تقوم به ديانته ضد الديانات والفلسفات القديمة .

جلست في عزلتي ، منذ بضعة اعوام ، افكر في عيد الميلاد ، وفي الطفل الذي كان الناس في ذلك الوقت يهتمون للاحتفال بعيد ميلاده . واول ما ورد الى فكري من تذكارات هذه الحادثة الجليلة الرسالة التي سبقتها مبشرة بالسلام على الارض والمسرة بين الناس . فسارت افكاري من فورها الى النبوءة التي نطق بها اشعياء النبي في العهد القديم واصفاً الرسول الآتي ، قبل ميلاده باجيال عديدة ، بقوله انه « امير السلام » ولاجل تثبيت تذكاراتي عمدت للحال الى سفر اشعياء النبي اقرأه برغبة حارة ،

فوجدت ، لمسرة قلبي ، وراء كل آية من الايات التي قرأتها ولا اذكر نصبها الآن ، آية جديدة لم افطن لها من قبل ، وهي باجمعها تعلن ان سلامه وحكمه لن يكون لهما انقضاء . لانه سيقضي في شعبه بالعدل والاستقامة . وبعد الامعان الطويل في درس هذه النبوة اتخذت منها موضوع بحثي الحاضر الذي اقدم بواسطته بعض العوامل التي حملتني على الايمان بان المسيح قد عمل بامانة فقال باستحقاق كامل اسمه الحقيقي — « امير السلام » وان العالم على ممر الزمان سيعرفه بهذا الاسم اكثر من اي اسم آخر سواه . فالايمان به يحمل السلام الى القلوب ، وتعاليمه ، اذا عمل بها الناس ، عملت هي أيضاً في ساعتها على ايجاد السلام بين صفوفهم . واذ كان المسيح قادراً على حمل السلام الى القلوب وتأييده بتعاليمه وأعماله بين الناس فمن يستطيع والحالة هذه ان ينكر حقه في ان يدعى بعدل « امير السلام ؟ »

* * *

جميع الناس ينشدون السلام ، وكل قلب بشري خفق في العالم كان يجوع ويعطش للسلام . ولكن أكثر الناس جهلوا الوسيلة الفضلى للحصول على السلام . فقد فكر فريق في الحصول عليه بالثروة ، فعملوا وراء كنوز المال مؤملين ان يجدوا سلامهم عندما يصبحون في حالة تمكنهم من السفر حيث ارادوا ، واقتناء ما تشتهي قلوبهم وتتوق اليه نفوسهم . ولكن الذين جربوا شراء

سلامهم بالمال فشلت مساعي الاكثرية الساحقة فيهم ولم تحصل على المال . ولكن ترى ماذا اصاب الذين نجحوا منهم في تحصيل المال الذي أرادوا ؟ انهم باجمعهم يقصون علينا قصة واحدة : وخلاصتها أنهم بذلوا النصف الاول من حياتهم لاخذ المال من الآخرين ، والنصف الثاني بالحؤول دون الآخرين لكي لا يغتصبوا أموالهم . ولكنهم لم يجدوا سلامهم لافي النصف الاول ولا في الثاني . وهنالك الكثيرون من ذوي الاموال الذين وجدوا العقبات قائمة في سبيل قبول الناس لاموالهم ، وانني لا أجد في هذه الامة الاميركية الناهضة دليلا أوضح على نهضتها في آدابها من تيقظ ابنائها في التمييز بين الطريقة النظيفة للحصول على المال والطريقة الغير النظيفة . لان المعاهد الدينية والتهذيبية والخيرية قد خطت خطوات بالغة برفضها المتواصل للاموال الغير النظيفة التي أراد أصحابها ان يقفوها على هذه المؤسسات العمومية فوضعت بذلك خير المبادىء للاعمال الشريفة ، وعلمت الناس ان الآداب ، في كل زمان ومكان ، هي أسمى وارفع وانقى من أن تباع وتشرى بالاموال .

وهنالك الذين جدوا في طلب السلام عن طريق امجاد الوجاهة الاجتماعية ، ولكنهم سواء كانوا ضمن دوائر العظمة الوهمية يرتعدون من مجرد التفكير في ان عروشهم ستهوي بهم يوماً ما الى الحضيض ، أم كانوا خارج هذه الدوائر يتشوقون للدخول اليها ، فانهم لم يتمتعوا بحلاوة السلام المنشود .

وهنالك الذين خيل لهم ان يجدوا سلامهم على عروش الصدارة العقيمة في الوظائف السياسية ، ولكن الحكم ، وراثياً كان ، كما في البلدان الملوكية ، ام انتخابياً شعبياً ، كما في البلدان الجمهورية ، فان المتكالبين عليه لم يجدوا السلام المطلوب. لان الوظيفة السياسية لا تكون عظيمة بالحقيقة ما لم يكن القادرون على التمتع بها افراداً موهوبين تعدهم على اصابع يدك . ونحن لا ندعو الوظيفة شرفاً لصاحبها ما لم يكن الراغبون فيها افراداً قلائل في الامة . ويسرني جداً ان الاب السماوي لم يجعل سلام القلب البشري نتيجة لجمع الثروة او ثمرة لشجرة الوجاهة الاجتماعية والنفوذ السياسي ، لان عدد الذين يتاح لهم التمتع بالسلام بمثل هذه الوسائل قليل جداً . ولكنه اذ جعل السلام نتيجة للضمير السليم ، الذي لم يسيء قط لا الى ربه ولا الى الناس، فانما جعله ملكاً حلالاً للجميع بالسوية. فالفقراء يحصلون عليه كالاغنياء والعامة الحقيرة تحوزه كالزعماء والنبلاء ، وأصغر ابناء الامة ينالونه كأرفع رجال السياسة والحكام والعظماء .

ان الذين نضب ينبوع الايمان في قلوبهم لا يعرفون اللذة التي في الايمان بالعناية الالهية المدبرة لجميع المخلوقات . فقد علم المسيح ان حياة الناس ذات قيمة بالغة في نظر الله . وقد اتخذ الشعراء الخالدون هذه الحقيقة ونظموها باشعارهم الباقية على ممر العصور . غير انه لم يقم بين شعراء العالم من عبر عن هذه الفكرة السامية بطريقة

ابسط واجمل مما فعل الشاعر الكبير وليم سي برنيت W. C. Bryant في انشودته الشهيرة لطائر الماء . فانه بعد ان تتبع الطائر في طيرانه ، تارة الى الشمال وطوراً الى الجنوب ، ينشد وطنه المحبوب ، قال :

« ها قد سرت في طريقك ، وحجبك الفضاء عن عيني ،
« ولكنك قد حفرت الدرس الذي علمتني على صفحات قلبي ،
« فلن يمحوه كرور الايام .
« ان الكائن الحكيم الذي يقودك في طيرانك ،
« ويأتي بك الى موارد الامن والسلامة ،
« سيسدد خطواتي في الصراط المستقيم ،
« ويقودني في طريقي الطويل الى مياه السلام والراحة الابدية . »

وقد فتح لنا المسيح ابواب فردوس السلام بتأكيده لنا ان الصلة بين الاب في السماء والابن على الارض دائمة في العالم ، وان في منال كل انسان ان يتمتع بها بواسطة الدخول الى مخدعه ومناجاة ابيه السماوي الذي يصغي الى تضرعاته في الخفاء ويجازيه في العلانية . ومن في العالم يستطيع ان يصف لنا التعزية الحقيقية ، التي حصلت عليها القلوب المضطربة في عهد محنتها وتعسها ، بواسطة ساعة واحدة تقضيها بالصلاة امام الاب السماوي ؟

* * *

وهنالك الخلود!

مَنْ بين حكماء الارض يستطيع ان يقدر لنا قيمة ما أثمره الاعتقاد بالحياة الثانية من الثمرات اليانعات للنفوس الجائعة والحزينة ؟ قد تستطيع ان تحدث الشاب بان الموت نهاية كل شيء . لان حياة الشاب ممتلئة بالنشاط وآماله قوية لا تتعدى الموجودات امام عينيه فقط ، ولكنك لا تستطيع ان تقدم مثل هذه العقيدة الراعبة للام الكئيبة الواقفة بقلب منكسر امام سرير طفلها المحتضر او لغيرها من المتخبطين في دياجير المصائب والاحزان .

عندما كنت في مقتبل العمر كتبت الى الفيلسوف انغرسول[1] INGERSOLL اسأله رأيه في وجود الله وخلود النفس . فاجابني رئيس كتابه ان الجاحد الاكبر غائب عن مكتبه وارسل اليّ في طي جوابه خطاباً لسيده يجاوب على سؤالي . فقرأته بملء الرغبة في الاطلاع على رأي الفيلسوف الكبير ، وها أنا اقدم للقاريء الاديب خلاصة رأيه بعبارة وردت في خطابه الموما اليه ، قال : « انني لا اقول ان الله غير موجود ، ولكنني اقول انني لا أعرف . ولا اقول ان الحياة بعد القبر غير موجودة ، ولكنني اقول لا اعرف ! » وما برحت من تلك الساعة ادرس وافحص وانما اقدر ان افهم كيف

---

(١) سيطالع القراء الادباء في مجلة الخالدات المناظرة الشهيرة بين الفيلسوف والكردينال مانينغ وعنوانها رومية او العقل »

يستطيع الانسان ان يجد لذة لنفسه في نزع خميرة الايمان من قلب اخيه الانسان ووضعه في مكانها السم القاتل الذي يعبر عنه بقوله : « لا أعرف. »

ان يسوع قدم لنا برهانا صادقاً على خلود النفس ، ولكننا ما زلنا نعتقد انه من الضروري للايمان بالخلود ان يقوم الاموات من اجداثهم ويقولوا لنا ان القبر ليس نهاية للحياة . قد ضل ايها الجاحدون والمشككون ولم تفقهوا ان الخالق الحكيم وضع في كل مخلوق برأه لساناً ينطق بالخلود ويحدث كل ما في الوجود بالقيامة من الاموات .

فاذا كان الخالق يلامس بقوته الالهية قلب حبة الحنطة اليابسة المدفونة في بطن الارض فيخرجها من ظلمة سجنها ممتلئة حياة ونشاطاً ، أفهل يعقل انه يهمل نفس الانسان ، المخلوق على صورته ومثاله ، مدفونة في قلب الارض من غير ان يحييها ثانية حياة اوفر اعماراً من حياتها الاولى ؟ واذا كان يتنازل فيهب الوردة التي ذبلت ازهارها وحملتها امواج رياح الخريف ، رجاء جديدا بحياة جديدة في ربيع سعيد ، افهل يستطاع انه ، تعالت حكمته وسمت قدرته ، يضن بكلمات الرجاء على ابناء الانسان عندما تحل بهم عواصف الشتاء ؟ واذا كانت المادة اليابسة الميتة ، التي تغيرها عناصر الطبيعة من شكل الى شكل ، لا تموت ولا تعرف الفناء ، أفهل يمكن ان تموت روح الانسان بعد ان تقوم بزيارة قصيرة كضيف ملوكي لهذه الارض

كلا والف كلا ! ان هذا لا يكون ! ولذلك اثق بجماع قوة نفسي بوجود الحياة الثانية كما انى واثق بانني حي في هذه الساعة !

***

حصلت وانا في القاهرة على بضع حبوب من الحنطة ،المحفوظة في احد الاضرحة المصرية القديمة ، منذ ثلاثة آلاف سنة . واذ وضعتها على راحة يدي ونظرت اليها خطر لي ما يأتي : لو ان واحدة من هذه الحبوب زرعت على ضفاف النيل في السنة الثانية لنموها ، وزرعت جميع الحبوب التي انتجتها من ذلك الوقت الى اليوم ، فان حصادها المتجمع على ممر الاجيال كان كافياً لغذاء الملايين العديدة القاطنة في جميع انحاء العالم ففي حبة الحنطة قوة عجيبة تتخلص من الجسد الذي نراه بعيوننا ، وتؤلف من الارض والهواء جسداً جديداً كامل الشبه بالجسد القديم حتى لا نستطيع ان نميز بين الحبة القديمة والحبة الجديدة . فاذا كانت جرثومة الحياة هذه التي في حبة الحنطة تستطيع ان تحتفظ بحياتها خالية من الخطر على ممر ثلاثة آلاف سنة بواسطة الموت والقيامة الثانية، فانني لا اقدر بتة على الشك في ان لنفسي قوة عظيمة تمكنها في الوقت الملائم من الظهور ثانية بالجسد الذي يوافقها بعد ان يتحول جسدها الاول الى تراب .

أجل ان الاعتقاد بخلود النفس لا يعزي قلب الفرد فقط ، ولكنه يعمل على ايجاد السلام بين جميع الناس . وكل من يفكر في أنه يموت

كما تموت البهيمة انما يستسلم بكليته لعمل الشر ضد جاره ، اذا كان ثمت من مغنم يجره له عمله وهو لا يرجو ان يرى هذا الجار مرة ثانية . ولكن الذي يرجو ان يشاهد معارفه بعد الموت ويعيش واياهم الى الابد فانه يحجم عن فعل الشر هرباً من توبيخ الضمير الدائم . نحن لا نعرف انواع المكافأة المحفوظة لنا ، ولا علم لنا بنوع القصاص الذي سيحل بنا ، ولكن هب أن ليس للانسان من عقاب على شروره سوى توبيخ ضميره ، فان هذا التوبيخ الداخلي الملازم له على ما يبدر منه من الخطأ نحو اخيه الانسان انما هو بالحقيقة قصاص كاف له اذا كان عليه ان يعيش مع الذين اساء اليهم فيتمثل شره اذ يراهم ، ويذكر صغارته ودناءته ، وفي هذا ما فيه من الدرس الفعال لتهذيبه وتدريبه في مناهج الفضيلة . لان الضمير الحساس يبسط امام الانسان اصدق الصور ، المجردة عن الغايات التي توضح له حقيقة طبيعته . ولذلك قلت واقول ان الايمان بخلود النفس هو القوة الاولى العاملة على تأييد العدالة بين الناس ووضع اساس السلام الثابت الاركان لصرح المدنية الانسانية .

* * *

ومن الصفات التي تؤهل المسيح لان يكون امير السلام في العالم ـ العظمة التي تحلت بها شخصيته فاوجدت للعالم خير الوسائل المؤيدة للسلام على الارض .

تخاصم تلاميذه مرة متسائلين عمن سيكون الاعظم فيهم في

ملكوت السماوات ، فوبخهم يسوع قائلا : « من اراد ان يكون فيكم اولاً فليكن للكل عبداً . »

فالخدمة في عقيدة المسيح هي المقياس الحقيقي للعظمة : هكذا كانت على ممر العصور ، وهي كذلك اليوم ، وسيظل العظيم عظيما بما يفعله من الخير والفضيلة اكثر مما بأي شي.سواه. ما اعظم الثورة التي تحدث في العالم لو سار الناس على هذه الطريق المستقيمة في جميع اعمالهم . فان أعظم خصوماتنا وحروبنا ناشئة في الغالب عن سعينا إلى اغتصاب الاخرين ما عندهم — فلن يسود السلام بيننا حتى تنحصر جميع جهودنا في اعطاء الاخرين مما عندنا عوضاً عن سلبهم ما عندهم . ان مخاصماتنا وحروبنا وعداوتنا بعضنا لبعض هي بالحقيقة نتيجة لازمة للطمع الذي يحملنا على الجد وراء الاخذ من العالم المادي جهد الطاقة ، لذلك اعتقد ان السلام لا يسود على الارض ما لم تتجه رغباتنا بامرها نحو اعطاء العالم ، جهد الطاقة ، من العطايا الروحية المخزونة في ارواحنا. والمجتمع الانساني سيخطو نحو السلام خطوات بالغة عند ما يقدر قيمة الفرد فيه بما ينتجه بعرق جبينه وليس بما يناله من واردات امواله ، وحينئذ توضع التيجان على رؤوس العاملين على رفعة الانسانية والسير بها في مناهج الخير والفضيلة دون المتحدرين من الاسر الملوكية والحائزين على المفاخر الوهمية بالتقليد والوراثة . ومن مجيدات المبادي المسيحية انها تفسح المجال للضعفاء والوضعاء ليتمتعوا بكنوزها

الخالدة ، وهي في الوقت نفسه رفيعة بهذا المقدار حتى ان اقوى الاقوياء واعظم العظماء يستصغرون نفوسهم امامها .

وقد بلغ المسيح قنةجبل السلام بما قدمهللعالم من النظم المجيدة لتأييد الخير والصلاح على الارض بيد ان الراغبين في الخير لم يلجأوا باسرهم الى العمل بالمبادىء المسيحية في حياتهم — وفي مقدمتهم المسيحيون انفسهم . وفي تاريخ الجنس البشري طريقتان عمل بهما الناس في مشاريعهم الخيرية ولم يعرفوا غيرهما . فالطريقة الاولى اجبارية ، وهي تلخص بما يأتي :

يخطر للانسان فكر ، فيخيل اليه انه صالح ، فيحدث جيرانه به ، فيعرضون عنه ولا يوافقونه عليه . ولذلك يثور عليهم فيعمد الى عصاه ليضطرهم بالقوة على موافقته في ما يريد . والخطأ في هذه الطريقة مزدوج ، لانها تضر صاحبها وتضر من يرغب في تقديمها له بالسوية . لان الذي يشرع في الضغط على جيرانه ليفكروا بمقاييس فكره انما يجد في الغالب استعداداً قوياً لمقاومته ، فيحاربهم ويحاربونه ، وهكذا ينفق الفريقان الجهود والايام جزافاً ، فتضيع عليهما معاً الفرص السانحة لعمل الخير .

أما الطريقة الثانية ، وهي التي علم بها المسيح ، فانها اختيارية تقول للناس : « لا تقاوموا الشر بالشر ، بل قاوموا الشر بالخير » وقد اظهر اختبار الحكماء انه ليس في العالم افضل من هذه الطريقة لمقاومة الشر اني لست فلاحا ، ولا أعرف الكثير عن الفلاحة .

ولكن الناس يعتقدون بما ليس فيّ من هذا القبيل وحقلي يحصل على الاعلانات الكثيرة التي لا يستحقها . ولكنني أعرف من مهنة الفلاحة ما يكفيني للاعتقاد بانني اذا قطعت الاعشاب تنبت ثانية ، ولكنني اذا غرست بين الاعشاب الصغيرة اشجاراً لها قوة اعظم من قوة الاعشاب فانا واثق بانني لا اتخلص من قطع الاعشاب فقط ، بل اضمن لنفسي التمتع باثمار الاشجار التي غرستها .

ولكي لا تشوب نظام عمل الخير الذي وضعه يسوع شائبة ما نراه يثبته بوجوب تأييده بالمثال الصالح بقوله : « هكذا فليضيء نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الصالحة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات » فليس في العالم قوة انفذ في حمل الناس على أعمال البر والصلاح من قوة الشخصية الانسانية الرفيعة . فالنصائح التي نودعها مواعظنا البليغة يستطيع الانسان أن يرفضها ويعترض عليها ، والادلة المقدمة بواسطة الخطب والمحاضرات يمكن نقضها والتمرد عليها ولكن ما من رجل يستطيع أن يرفض المثال الصالح الذي تشع أنواره من الحياة المسيحية الحقيقية التي هي أساس راسخ لديانة المسيح .

قد تكون هذه الطريقة بطيئة في عملها — لان تجديد ميلاد العالم عن طريق ما يحدثه فيه مثال الشخصية النقية النبيلة لا يتم بسرعة — ولكنها بالحقيقة صحيحة النتائج بل هي العقيدة الواحدة التي يعم نفعها الفرد والجماعة معاً . فان بشارة أمير السلام وحدها تقدم لنا الرجاء الواحد ، الذي يتوق اليه العالم — وهو الرجاء الحي النامي

على الدوام — الرجاء السعيد بحلول العقل محل القوة للفصل في جميع الخصومات الدولية والمشاجرات الشخصية .

أجل ، قد وضع لنا المعلم الاكبر نظاماً سياسياً لم يحلم بمثله حزب سياسي في تاريخ الانسانية . كنا نحب النظم والبرامج الجديدة : ولذلك نقصد المؤتمرات الكبرى مسافرين من أقصى انحاء البلاد لحضورها . وهنالك نتحارب ونتضارب بسيوف الالفاظ وكنا نود التمتع بالفوز بوضع النظام الذى يلتئم المجتمع لاجله . ولكن النظام الذي قدمه المسيح للعالم هو بالحقيقة أعظم وأشمل من جميع النظم السامية التي وضعها الحكماء في مختلف الازمنة والامكنة وعند ماحصر الوصايا العشر كلها بوصية واحدة بقوله : « أحبب قريبك كنفسك » انما اظهر للانسانية بأوضح الصور انه بلغ الحل الصالح لجميع القضايا التى تقوم بين الناس في حياتهم على الارض أما العقاقير الاخرى التى جاء بها الحكماء قبل يسوع وبعده فهي ،وان خففت من اوجاع الناس وعملت على تسكين آلامها حيناً ، عاجزة عن ان تكون ، كدواء المعلم الصالح ، بلسما شافيا من جميع الامراض في جميع الظروف والحالات ، وملاكا حارسا للصحة الدائمة والسلامة المقيمة .

* * *

وقد يحمل الناس عملي على محمل الروح الحزبية والنعرة السياسية اذا عمدت الى تطبيق هذا المبدأ في جميع القضايا الاجتماعية التي تعالجها أقلام الادباء في بلادنا العزيزة وفي سائر انحاء العالم ، ولكنني

استطيع تجنب هذا بحصر مباحثي في موضوعين جوهريين : أولهما قضية العمل ورأس المال فليست هذه بالقضية السياسية المختصة بفريق دون فريق أو أمة دون أمة : بل هي قضية عامة تشغل أفكار الناس قاطبة وقد كان لها شأنها في كل أدوار التاريخ الانساني .

فأول ما يحتاج اليه المتناظرون في هذه القضية ان يسلموا الحكم بمناظرتهم لهيئة لا شأن لها في موضوع الخلاف، لان الفريقين المتناظرين لا يصلحان للحكم في قضية لكل منهما مصلحته المخالفة لمصلحة غيره فيها ولكن المحكمين الغرباء عن القضية يستطيعون ان يحكموا بنزاهة واحكامهم مبرمة في الموضوع على ان هنالك ما هو افضل من هذا وهو ان توضع أسس العلاقات بين أرباب الاموال والعمال بطريقة تجعل بنيان أعمالهم راسخاً من غير أن يحتاج الى مثل هذه الهيئات التحكيمية. لان الناس لن يتمتعوا بثمرات الاتفاق والصداقة ما لم يعرفوه قبل كل شيء انهم أخوة بعضهم لبعض وان الله أب لجميعهم، ولذلك يجب ان يعاملوا بعضهم بعضا كما يعامل كل منهم نفسه . والعامل ورب المال يكونان سعيدين مستريحين معاً اذا عملا بوصية المسيح القائلة : « أحبب قريبك كنفسك »

والموضوع الثاني الذي يمكن تطبيقه بنجاح تام على هذه الوصية الصالحة هو موضوع جمع الثروة فقد أصبحت الرغبة في جمع المال جزءاً ملازماً لحياة الجميع ولذلك صار من الواجب الاولي علينا ان نضع الحدود الضرورية للمحافظة على الآداب في مثل هذه

الحال فكلنا يعرف اليوم ان اكثر الثروات العظيمة التي جمعت في الربع الاول من القرن الحاضر يحتفظ بها الآن رجال لم يقوموا بما وجب عليهم من الخدمة الصالحة للعالم . ومع ان المجالس التشريعية تستطيع ان تقي الامة من الثروة النهابة والواجب يقضي عليها بذلك فان هنالك دواء اكثر فعلا في محاربة هذا الداء، وهو تهذيب الرأي العام واعداده بطريقة تنفر الناس من الركض وراء التمتع بالثروة التي لم يجنوها بعرق الجبين . فانه ما من رجل يعرف معنى المحبة الاخوية ويقبل على الاضرار بأخيه الانسان واغتصاب حقوقه ، والضمير الحساس لا يأذن لصاحبه ان يتعدى على الغير . وان ايماني بالمستقبل قائم على العقيدة الراسخة في قلبي ان العالم يدرس تعاليم المسيح اليوم اكثر مما درسها في الماضي ، وان هذا الدرس سيؤدي أخيراً الى عمل العالم بتعاليم المعلم الاكبر ان لم يكن عاجلا فآجلا فقد قرأ الناس في الاجيال السالفة ان المسيح جاء الى العالم حاملا له الحياة الحقيقية ومؤكداً الخلود لابنائه ولكنهم اليوم يدرسون غير هذا عن المسيح — يدرسون علاقة تعاليمه وأعماله بالحياة الانسانية.

وكان الناس في الايام القديمة يعدون ذواتهم للبركة السماوية بحياة العزلة والانفراد عن العالم : ولكنهم اليوم يعرفون ان خير الطرق المؤدية بهم الى اتباع خطوات المسيح انما هي في الحياة مع الناس والسعي الحثيث للعمل الصالح في اثناء هذه الحياة . فقد أعلن المسيح انه جاء لكي يكون لنا فرح في ذواتنا وليكون فرحنا كاملا ، والعالم

يتعلم شيئاً فشيئاً ان المسيح لم يأتِ الى الارض ليجعل الحياة ضيقة على الانسان ولكنه جاء ليجعلها وسيعة ويملأها بالرغبات الصالحة والعواطف الشريفة والسعادة الكاملة النبيلة .

وهو بحكمته السامية لم يقصر وعده على السلام فقط، بل تجاوزه الى القوة . فقد خيل الى البعض ان تعاليمه لا تليق الا بالضعفاء والادنياء ولا تصلح لذوي القوة والعزم والطموح . ولكن هذا ضلال مبين عن الحقيقة البسيطة . لان المؤمن الحقيقي هو البطل الشجاع بايمانه دون المشكك المرتاب . فهو بما له من الثقة بانه يحارب في سبيل الله يقضي على جميع الشكوك والاوهام التي قد تطرأ على فكره ويسير بقدمين ثابتتين الى محجة النجاح الوكيد . وماذا يهمنا اذا لم يشارك مثل هذا المؤمن الشجاع الناس في هتافهم للنصر والظفر ؟ لانه اذا كان لكل كلمة في سبيل الحق نفوذها الخاص بها، واذا كان لكل عمل في سبيل الحق أجره وثوابه في يوم المحاكمة ، فالمسيحي الحق سواء عنده رأت عيناه النصر أم قضى نحبه في وسط المعركة .

ان الذين يقدمون على الاعمال المستحيلة بظواهرها انما يبرهنون بهذا الاقدام البعيد عن الخوف ان الرجل الذي يسير مع الله يستطيع ان يطارد الف رجل ، والرجلين العاملين بمشيئة الله يهزمان عشرات الالوف . كثيرا ما كان المشككون الجبناء ينصحون المسيحيين الاولين الذين ذهبوا طعما لنيران رومية وألفوا المشاهد اللذيذة لاولئك الرومانيين الذين كانوا افظع من الحيوانات الفظيعة ، —

كثيراً ما كان أولئك المشككون ينصحون المؤمنين الحقيقيين ألا يعرضوا حياتهم لتلك الميتات الراعبة ، ولكن ايمان هؤلاء كان يحملهم الى الانحناء في وسط الجماهير المتفرجة عليهم ، وهم يصلون ويترنمون بالاناشيد الروحية الى ان تبتلعهم ألسنة النار أو تلتهمهم الوحوش الضارية ، ما اضعف ما كان اولئك البؤساء يظهرون أمام اعدائهم ، وشد ما كانت حماقتهم تجاه جميع النظم البشرية ! بيد أنه لم تمر على شهادتهم وموتهم الاعوام الطويلة حتى اظهروا للعالم اجمع ان القوة التي القوا بذارها بالشجاعة المسيحية قد غلبت في النهاية جيوش الامبراطورية العظمى ، والايمان الذي ماتوا في سبيله قد انتصر على جميع قوات الارض . وقد قيل ان الذين كانوا يجتمعون للتمتع بلذة النظر الى آلام الشهداء كانوا يرجعون الى منازلهم عند المساء وهم يتساءلون قائلين بعضهم لبعض: « ماهي القوة التي تدخل قلب الانسان فتحمله على الموت كما يموت هؤلاء المسيحيون ؟ » فقد كان لهم في موتهم من الانتصار مالم يكونوا ليحلموا به لو انهم اشتروا حياتهم بالاعراض عن ايمانهم .

وكيف كان مصير الكنيسة الاولى لو ان ايمان المسيحيين القدماء كان ضعيفاً كايمان المسيحيين اليوم ؟ ولو كان لمسيحيي هذه الايام ايمان الشهداء المتقدمين فكم كنا نسير بسرعة الى اليوم الذي تتم فيه النبوءة القائلة : في ذلك اليوم كل ركبة ستركع وكل لسان سيعترف ... ؟

فيا أخوتي المسيحيين المنتشرين في جميع الارض ، ان ايماننا بالمسيح يجب ان يكون اليوم أعظم من إيمان الذين عاشوا منذ نحو الفي سنة ، لاننا نرى ديانتنا المحبوبة تنتشر يوما فيوما وتغلب جميع فلسفات الشرق وعقائده القديمة

وكلما تقدم المسيحي في الايام يزداد تقديره للكمال الذي به يجعل المسيح رغبات القلب كاملة ، ويتضاعف شكره لله على ما يتمتع به من ثمرات السلامة والقوة والسعادة التي أعدها له المسيح بانجيله الطاهر ، فيهتف مع الفيلسوف الكبير السير وليم جنز Sir Wm.Johns قائلا :

« أمام مذبحك السري ، وحقك السماوي ،
« اركع في الرجولة كما ركعت في الشباب ،
« لذلك دعني اركع أمامك حتى يضمحل هذا الجسم الترابي ،
« وتشرق سماء الحياة بانوار وحيك العجيب . »

« انتهى أمير السلام ويليه اشتراكية يسوع »

اشتراكية يسوع

١ : الاختبار الشخصي

قد تنازع السيادة على نفسي منذ اعوام عديدة رغبتان قويتان: رغبتان مستقلة احداهما عن الاخرى كل الاستقلال : الواحدة دينية والثانية سياسية . فالرغبة الاولى كانت تدفع بي الى عبادة الكائن الذي تعرفه المسيحية مخلصا للعالم ، وقد بدأت من اليوم الذي عرفت فيه المسيح الحي الى الابد ينبوعاً فياضا للمحبة الكاملة التي كانت في العالم منذ البدء وما برحت تعمل في كل لحظة ضد قوات الشر في سائر انحاء الوجود متخذة موطنها الدائم في القلوب الانسانية . والمسيح من تلك الساعة هو في عقيدتي الطريق والحق والحياة — ربي والهي — وها أنا ما زلت اعتقد ان الذي يقبل المسيح كما أقبله ، ويؤمن به كما أومن به فهو ولا شك واجد خلاصه وسعادته .

والرغبة الثانية ، الرغبة السياسية قد لزمتني منذ فتحت عيني لنور الحياة ، وهي التفرغ لدرس الحركة الديموقراطية العامة في العالم في القرنين الماضيين ، ورائدي في جميع ذلك «الحرية العامة.» وقد كانت هذه الرغبة في بداءتها سياسية فقط ، ولكنها صارت اقتصادية كما هي سياسية. فانا أرغب اليوم في تحرير الانسانية من نير رأس المال الثقيل، وتأييد الوسائل العاملة على التعاضد العمومي

في جميع الاعمال . أو بكلمة واحدة انني أقف حياتي بكاملها على المبادىء الاشتراكية الصحيحة .

وهاتان الرغبتان اللتان اختلجتا في قلبي سحابة حياتي هما شقيقتان توأمان . لان المحبة الانسانية التي علم بها يسوع لا يمكن أن تظهر اليوم بمبدأ أصدق وأقرب اليها من المبدأ الاشتراكي . ولم يخطر لي الا من أيام قليلة ان أسائل نفسي ماذا يكون موقف يسوع تجاه الاشتراكية — أو بالاحرى ماذا نستطيع ان ندرس في تعاليمه عن آرائه في حقوق العمل والعمال واغلاطهم

٢ : البحث في الموضوع

وليس لنا مصدر نتعلم منه حقيقة فكر يسوع سوى الاناجيل الاربعة . وفي رجوعي اليها بهذه الرغبة الجديدة شعرت في اعماق قلبي بحاجة المسيحيين الى درس حياة المعلم الاكبر بطريقة صحيحة تقرب لهم الحقائق الخالدة المدونة فيها والتي كادت النظم التقليدية تحجبها عن عيون الناس . ولذلك فكرت في ذاتي قائلا : ان نظرة اجمالية الى البشائر الاربع ضرورية جداً للاطلاع على كل ما فيها مما له علاقة بالمواضيع الاقتصادية في حياة الناس ، وخصوصاً في الموضوع الذى لم يفارق الانسان منذ وجد على الارض وطالما اشتعلت لاجله نيران الثورات الكبرى ، وهو الموضوع القائم بين العمل ورأس المال . لاجل هذا جميعه جلست في أحد الايام اقرأ

الاناجيل محمولا بهذه الرغبة الخفية ، وما فرغت من قراءتها حتى رأيتني اسائل نفسي قائلا : « كيف كانت هذه الكلمات تبدو لي لو كنت اسمعها لاول مرة في حياتي وادخلها الى اعماق فكري المشتغل جهده للحصول على الخبز الجوهري ؟ »

وقد تم لي في تلك النظرة الاجمالية لاقوال أمير السلام مافرح به قلبي من الاطلاع على حقيقة فكر يسوع في الاشتراكية الانسانية بأوسع معانيها ، ولذلك عمدت الى درس دقيق لحياته — وبعد العمل المتواصل اقتطفت من أقواله واعماله كل ما قادني الى هذه العقيدة الجديدة بزعامته الاولى للاشتراكية الحقيقية . وقد اعرضت في درسي هذا عن جميع التفاسير الذي يعتمدها رجال الدين المسيحي على اختلاف طوائفهم حاصرين كل قول وكل عمل من أقوال المعلم وأعماله ضمن دائرة محدودة فلا يتعداها : وبذلت قصاراي في فهم أقواله وأعماله بصورتها الطبيعية البسيطة . وها أنا ذا مورد خلاصة درسي بما يأتي :

٣ : الاغنياء والفقراء

أول ما احدثته مطالعة الاناجيل في نفسي من التأثير العميق : هو المقابلة بين الاغنياء والفقراء كما نقلها الانجيليون عن المسيح . واليك بطائفة من أقواله عن هاتين الطبقتين :

« طوبى لكم أيها المساكين ، فان لكم ملكوت الله . »

« طوبى لكم أيها الجياع ، فانكم ستشبعون . »
« طوبى لكم أيها الباكون الآن ، فانكم ستضحكون . »
« الويل لكم أيها الاغنياء ، فانكم قد نلتم عزاءكم . »
« الويل لكم أيها المشبعون ، فانكم ستجوعون . »
« الويل لكم أيها الضاحكون ، فانكم ستنوحون وتبكون . »
« تعالوا اليّ أيها المتعبون والثقيلوا الاحمال وانا أريحكم . »
« ان روح الرب عليّ لانه مسحني لابشر المساكين . »
« انتم ملح الارض : انتم نور العالم . »

فاذا كان قد خاطب الفقراء والمساكين بهذه اللهجة الوديعة فلا عجب ان يخبرنا الانجيلي: « ان الفقراء سمعوه بمسرة » وهكذا نراه في موضع آخر يثني على الارملة الفقيرة التي القت فلسين في خزانة الهيكل ، وهما كل ثروتها، ويقابل بين احسانها القليل واحسان الاغنياء الكثير ، ومثل ذلك عندما مثل على شقاء الغني في العالم الثاني بعد ان استوفى خيراته على الارض، وسعادة الفقير في الاخرى بعد ان احتمل مصائبه وبلاياه في الاولى

٤ : ماهية الصلاح

والتأثير الثاني الذي احدثته مطالعة الاناجيل في نفسي هو المقابلة بين تعريف يسوع للصفات التي ينزلها أرباب الاموال المنزلة الاولى في حياتهم — كالاقتصاد ، والتأني ، والاهتمام البالغ بالنفس ، —

وتعريفه للصفات التي يعشقها العمال ولا يرضون عنها بديلا — كالدقة ، والاريحية الظاهرة في العطاء والاخذ والاستدانة والدين. فقد أوضح رأيه بصراحة تامة في هذين النوعين من نظم الاداب بما يأتي من أقواله الحكيمة :

« لا تكنزوا لكم كنوزاً على الارض . »

« لا تهتموا لانفسكم بما تأكلون ولا بما تشربون ولا لاجسادكم بما تلبسون . »

« لا تهتموا بشأن الغد ، فالغد يهتم بشأنه يكفي كل يوم شره . »

« خبزنا الجوهري أعطنا اليوم . »

« من سألك فأعطه ، ومن أراد ان يقترض منك فلا تمنعه . »

« وكما تريدون ان يفعل الناس بكم فافعلوا انتم بهم . »

« بع كل مالك واعطه المساكين . »

« اجعلوا لكم اصدقاء من مال الظلم . »

« وان اقرضتم الذين ترجون ان تستوفوا منهم فأية منة لكم؟ فان الخطأة يقرضون الخطأة لكي يستوفوا منهم المثل ! »

« واغفر لنا ما علينا كما نغفر لمن لنا عليه . »

« ان خطاياها الكثيرة قد غفرت لها لانها أحبت كثيراً . »

وامثاله في هذا الموضوع كثيرة أهمها مثل العبد الذي سامحه سيده بدينه كله ، وكيف ان نفسه الطماعة سولت له ان يظلم العبد

رفيقه ويستوفي منه دينا صغيراً كان له بذمته فأصابه ما أصابه من الالقاء في الظلمة البرانية حيث البكاء وصريف الاسنان

٥ : آداب الطبقات

من مثل هذه الاقوال المقتطفة من الاناجيل ، ومن معانيها البسيطة الصريحة تعلمت ان يسوع يفضل العطاء والبذل على التقتير والبخل . وقد جاء هذا مثبتا لعقيدتي الاولى وخلاصتها ان الآداب المعمول بها بين طبقة العمال هي أرفع من الآداب التي يعمل بها أرباب الاموال فرأيت اذ ذاك اننا نحن المسيحيين كثيراً ما نضل عن الصراط المستقيم الذى رسمه لنا المعلم الاكبر بسبب تمسكنا بالنظم البلهاء التي وضعها الاقوياء من اسياد الثروة فرحنا نسير في آثارهم متخبطين في ظلمة ظلماء من التقاليد الرثة الخرقاء . ولذلك يجدر بنا كمسيحيين حقيقيين ان نضرب بالنظم القديمة العقيمة — التي تقسم الناس الى طبقات مختلفة باختلاف الحسب والنسب والنشب نعم ان نضرب بها عرض الحائط ولا نفرق بين الانسان وأخيه الانسان الا بالفضل والصلاح .

وقد رأيت يسوع من خلال هذه الاقوال عاملا كاملا ومثالا صالحًا لكل فرد من طبقة العمال الاحرار والابرار في مختلف الاجيال والامصار .

٦ : الرعاة والاسياد

« ومن ميزات تعاليم يسوع وشخصيته البارزة قضاؤه على زعماء الدين في زمانه ، الزعماء الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، بمثل اللهجة القوية التي في العبارات الآتية :

« ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون ! »

« ويل لكم أيها القادة العميان ! »

« ويل لكم أنتم أيضاً أيها المتشرعون ! »

« أيها الجهال والعميان ! »

« انكم ممتلئون رياء ودعارة ! »

« ان داخلكم مملوء خطفاً وشراً ! »

« أيها الحيات أولاد الافاعي ، كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ »

ان هذا التوبيخ الراعب تصحبه التهم الآتية : مخالفة وصية الله الآمرة باكرام الوالدين والقيام بأودهم ، العمى الاختياري ، ابتلاع بيوت الايامى واطالة الصلوات لعلة بسيطة ، ولأجل هذا يخبرهم أن دينونة أعظم ستحل بهم ، الاعراض عن الحق والرحمة والايمان ، وهي ثقيلات الشريعة ، الخطف ، والطمع ، والقتل ، والدعارة ، وفوق هذا كله الجرائم الاتية التي يتهم بها المتشرعين بقوله :

« فانكم تحملون الناس أحمالا شاقة الحمل وانتم لا تمسون الاحمال باحدى اصابعكم . »

«وقد أخذتم مفتاح المعرفة فلم تدخلوا أنتم والداخلين منعتموهم.»

ويلوح لي، إذ أتأمل في هذه الايات الثقيلة الوطأة على الزعماء، ان الغاية منها لم تقتصر على الطعن بالرسوم النظرية التي كانوا يعلمون بها بل كانت الغاية الاولى منها التنديد بتصرفاتهم اليومية وطرائق معايشهم التي كانوا يتبعون: كالاحتيال على الارامل لهضم حقوقهن وابتلاع أموالهن وبيوتهن: والاستسلام للطمع الذي يحول بينهم وبين القيام بواجباتهم نحو والديهم: والغلاظة والقسوة وغير ذلك مما يتسبب في الغالب عن الجشع الذي هو نتيجة طبيعية لمحبة المال

واذ أنعم النظر بهذه المطاعن وأجيل رائد الفكر في ثقل ما ألقته على اكتاف الرؤساء من المسؤولية العظمى وما أحدثته في قلوب المرؤوسين من التمرد على أسيادهم واحتقارهم لهم وهم قادة الدين والدنيا، اشاهد من خلال ذلك المثل الاكمل لرجل الشعب وصديق العمل الشريف والعمال الاوفياء ينزل قضاءه العادل بطبقة أرباب الاموال وورثة التقاليد البلهاء الذين ما برحوا منذ وجد الانسان على الارض اعداء ألداء للحقيقة والرحمة والعدالة.

بيد أن هذه المطاعن العنيفة لم تخرج بحد ذاتها عن دائرة القول البسيط، ولم تقدر بنفسها على اثارة النار الكامنة في قلوب أرباب الاستبداد فتحملهم على قتل المتفوه بها وهو الزعيم الاكبر الواقف عمره على نصرة المظلوم ورفع النير الثقيل عن رقاب المساكين.

ولـكن ثورة أعظم منها حملت الرؤساء والعظماء على قتله وهي مدونة في الانجيل كما يأتي :

« ودخل يسوع هيكل الله وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون في الهيكل ، وقلب موائد الصيارفة وكراسي باعة الحمام ولم يطق أن يرى أحد يحمل متاعاً في الهيكل ، ثم علمهم قائلاً : «مكتوب بيتي بيت صلاة يدعى وانتم جعلتموه مغارة للصوص. »

فقد قضى بهذا على مصالحهم المالية ، وما برح هذا القضاء ثقيلا على ذوي الاموال في جميع الامكنة والازمنة . ولذلك هبت الثورة ضده وتعالت أمواج حنق الاغنياء عليه حتى اننا لا نستغرب ان نقرأ ما كتبه الانجيلي بعد هذه الحادثة قائلاً :

« واذ سمع الـكتبة والفريسيون بهذا ذهبوا يلتمسون فرصة ليهلـكوه . »

وأهم ما يسترعي انتباهي في توبيخ يسوع للـكتبة والفريسيين والمتشرعين القضاء الرهيب الذي انزله بالمتاجرة ، فقد كان ينظر اليها اذ ذاك نظرته الى السلب والنهب ، ويعتقد أن البيع والشراء لمجرد الربح (أو بالاحرى للربح القبيح) ، وتبديل النقود على موائد الصيارفة بقصد الاحتفاظ بقسم منها (وقد يكون هذا القسم كبيراً جداً ؟) هو الخطف والسرقة بعينهما . وفي كلا الحالين يتضح لنا باجلى بيان انه لم يؤمن بحرية التجارة القائلة بان الانسان يستطيع أن يشتري بأبخس الاثمان التي يجد اليها سبيلا ويبيع ما يشتريه بأغلى

الايمان التي يقدر أن يحمل الناس على دفعها . ومن كل هذا نرى المثل الا كمل للعامل البسيط ينظر الى آداب التجارة بعيني الطبقة العاملة

٧ : الحركة الكبرى

ان الموضوع الرئيسي الذي تدور حوله اكثر اقوال يسوع هو الحركة الكبرى التي شرع فيها وأطلق عليها اسم « ملكوت السماء » أو كما دعيت في موضع آخر من الانجيل « ملكوت الله » أما الصفات التي تؤهل الطالب للدخول في عضوية هذا الملكوت فاننا نراها مدونة بملء البساطة والقوة في الاناجيل الطاهرة ، أساسها الحقيقة الخالدة ولا أثر فيها للرياء أو المراء .

وأول ما يلفت الانظار في هذه الدعوة أنها موجهة بنوع خاص الى الفقراء : فقد اخبرهم المعلم بصراحة ان هذه الجمعية مختصة بهم قبل غيرهم . وأما الاغنياء فقد اعلن لهم انهم لا يصلحون للملكوت حتى يبيعوا كل مالهم ويعطوه المساكين ، واوضح لهم أن دون مثل هذا العمل عقبات كأداء لا تذللها الا الارادة الجبارة والاعتصام بثروة الخير والفضيلة دون ثروة الذهب والفضة. وها أنا ناقل للقارىء الاديب فريقاً من اقوال المعلم في ما نحن بصدده ، قال عليه السلام :

« طوباكم أيها المساكين ، فان لكم ملكوت السماء . »

« والمساكين يبشرون بالانجيل (وهو بشارة الملكوت) . »

« ان رجلا صنع عشاءً عظيما ودعا كثيرين : فارسل عبيده

في ساعة العشاء يقول للمدعوين ، هلموا فان كل شيء قد أعد . فطفقوا كلهم ، واحدٌ فواحد ، يعتذرون . فقال له الاول ، قد اشتريت حقلا ولا بد لي أن اخرج وانظره ، فاسألك أن تعذرني . وقال الآخر ، قد اشتريت خمسة فدادين بقر وانا ماض لاجربها ، فأسألك ان تعذرني . وقال الآخر ، قد تزوجت امرأة فلا استطيع أن اجيء . فرجع العبد واخبر سيده بذلك . فحينئذ غضب رب البيت وقال لعبده : اخرج سريعاً الى شوارع المدينة وازقتها وائت بالمساكين والجدع والعميان والعرج الى ههنا . فقال العبد ، ياسيد قد قضي ما امرت به وبقي محل . فقال السيد للعبد ، اخرج الى الطرق والاسيجة واضطرهم الى الدخول حتى يمتلىء بيتي . فاني اقول لكم انه لا يذوق عشائي أحد من الرجال المدعوين . »

« وكل من لا يترك ماله باسره من أجلي لايقدر أن يكون لي تلميذاً . »

« واذا برجل دنا اليه وقال له ، أيها المعلم الصالح ، ماذا أعمل من الصلاح لارث الحياة الابدية ؟ فقال له : لماذا تسألني عن الصلاح ؟ انما الصالح واحد وهو الله . ولكن ان كنت تريد ان تدخل الحياة فاحفظ الوصايا . قال له ، وما هي ؟ قال يسوع : لاتقتل . لاتزن . لا تسرق . لاتشهد بالزور . اكرم أباك وامك . احبب قريبك كنفسك . فقال له ، كل هذا قد حفظته منذ صباي فماذا ينقصني بعد ؟ فقال له يسوع ، ان كنت تريد ان تكون كاملا

فاذهب وبع كل شيء لك واعطه المساكين فيكون لك كنز في السماء. وتعال اتبعني . فلما سمع الرجل هذا الكلام مضى حزيناً لأنه كان ذا مال كثير . فقال يسوع لتلاميذه : الحق اقول لكم انه يعسر على الغني دخول ملكوت السماوات . وايضاً أقول لكم، انه لأسهل أن يدخل الجمل في ثقب الابرة من أن يدخل غني ملكوت الله . فلما سمع التلاميذ بهتوا جداً وقالوا : من يستطيع اذن أن يخلص ؟ فنظر اليهم يسوع وقال لهم ، أما عند الناس فلا يستطاع هذا واما عند الله فكل شيء مستطاع . »

« والذي زرع في الشوك هو الذي يسمع الكلمة وهم هذا الدهر وخداع الغنى يخنقان الكلمة فيصير بلا ثمرة . »

« أليس هذا هو النجار ابن مريم ؟ »

« وكانت العامة تصغي الى كلامه بمسرة . »

« اشكرك أيها الاب ، رب السماء والارض ، لانك أخفيت هذه عن الحكماء والفهماء واعلنتها للأطفال . »

ومن اقواله لبطرس : « كل ما تربطه على الارض يكون مربوطا في السماء ، وكل ما تحله على الارض يكون محلولا في السماء » .

وقال ايضاً للتلاميذ : « الحق أقول لكم ان كل ما تربطونه على الارض يكون مربوطاً في السماء ، وكل ما تحلونه على الارض يكون محلولا في السماء . »

من كل هذا يتضح لنا باجلى بيان ان الحركة التي قام بها يسوع

على المنوال المذكور هي بالحقيقة حركة مباركة الغاية منها الدفاع عن طبقة العمال والعمل على تقدمهم ونجاحهم . فيجدر بالقارىء والحالة هذه ان يلاحظ الغاية البعيدة التي حملت يسوع على تقليد مثل هذا السلطان للصياد الفقير بطرس الزعيم الاكبر بين الرسل وحده اولا ثم اعطاء نفس السلطة لسائر الرسل مجتمعين معاً .

٨ : الحالة المقبلة

وقد ترقب يسوع النجاح الكامل لهذه الحركة المباركة ووثق بانها ستبلغ غاية سامية أطلق عليها اسم « ملكوت الله » أو « ملكوت أبي » أو كما في مكان آخر « ملكوت ابن البشر » فقد رأى بسابق علمه وثاقب نظره ان هذه الحركة ستؤول بالمؤمنين بها والعاملين بمبادئها الى اسمى حالات الكمال كما يتضح للقارىء الاديب من الامثال الآتية :

« يشبه ملكوت السماوات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها في ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع »

« مثل ملكوت الله كمثل رجل يبذر الزرع في الارض وينام ويقوم ليلا ونهاراً والزرع ينمو ويطول وهو لا يشعر . لان الارض من نفسها تخرج أولا العشب ، ثم السنبل ، ثم الحنطة ممتلئة في السنبل فاذا أدرك الثمر فللوقت يعمل المنجل لأن الحصاد قد حان »

« بماذا نشبه ملكوت الله ام اي مثل نمثل له ؟ انه مثل حبة

الخردل التي حين تزرع في الارض تكون اصغر جميع الحبوب التي على الارض . فاذا زرعت ارتفعت فصارت اكبر من جميع البقول ثم تخرج اغصاناً كبيرة حتى طيور السماء تستطيع أن تستظل في ظلها».

وبعد أن أورد الكتاب هذا المثل قال : « وبكثير من مثل هذه الامثال كان يخاطبهم على حسب ما كانوا يستطيعون أن يسمعوا . » ومن هذا نرى أن هذه التعاليم السامية كانت فوق ما يستطيع السامعون ان يدركوا .

ومن الاقوال الاخرى — التي تظهر أن يسوع عرف بسابق علمه أن البلوغ الى محجة الملكوت السماوي يحتاج الى التقدم التدريجي الطويل العهد — ما يأتي :

« انه حيثما كرز بهذا الانجيل في العالم كله يخبر بما صنعته هذه (المرأة) تذكاراً لها . »

« قد اتيت لالقي ناراً على الارض افلا اريد ضرامها ؟ »

« وهل تظنون اني اتيت لالقي سلاماً على الارض ؟ أقول لكم ، كلا ! بل شقاقاً . »

« واذا كانوا يسمعون هذا زاد فقال مثلا . . . . لانهم كانوا يظنون أن ملكوت الله عتيد ان يظهر في الحال . فقال : رجل شريف الجنس ذهب الى بلد بعيد ليأخذ لنفسه ملكا ويعود . فدعا عشرة عبيد له واعطاهم عشرة امناء ، وقال لهم تاجروا حتى آتي . وكان أهل مدينته يبغضونه فانفذوا في اثره رسلا قائلين لا نريد ان

يملك علينا هذا . فلما أخذ المُلك ورجع أمر ان يدعى عبيده الذين أعطاهم الفضة ليعلم ما بلغت تجارة كل منهم . فاقبل الاول وقال ، ياسيد ، ان مناك قد ربح عشرة امناء . فقال له ، أحسنت أيها العبد الصالح فقد وجدت أميناً في القليل فليكن لك السلطان على عشر مدن . ثم جاء الثاني وقال ، ياسيد ، ان مناك قد كسب خمسة امناء فقال لهذا أيضا ، وانت كن على خمس مدن . وجاء الاخر وقال ، هوذا مناك الذي كان عندي موضوعاً في منديل ، لاني خفت منك لكونك رجلا قاسيا تأخذ مالم تضع وتحصد مالم تزرع . فقال له ، من فمك ادينك ايها العبد الشرير . قد علمت اني رجل قاس آخذ مالم أضع واحصد مالم ازرع ، فلماذا لم تجعل فضتي على مائدة الصرف حتى اذا قدمت استوفيها مع رُبى ؟ ثم قال للحاضرين ، خذوا منه المنا وأعطوه للذي معه العشرة الامناء . فقالوا له ، يا سيد ، انه معه عشرة امناء ! فقال ، اني الحق اقول لكم ، ان كل من له يعطي فيزداد ، ومن ليس له يؤخذ منه ما هو له . فاما اعدائي هؤلاء الذين لم يريدوا ان املك عليهم فأتوا بهم الى هنا واذبحوهم أمامي »

« وعند ما سأله الفريسيون عن مجيء ملكوت الله أجابهم وقال : ان ملكوت الله لا يأتي بالانتظار ، ولا يقولون هوذا هنا ! أو هوذا هناك ! ان ملكوت الله في وسطكم »

« ان حبة الحنطة اذا لم تسقط في الارض وتموت تظل لوحدها ولا حياة لها . ولكنها اذا ماتت أتت بثمار كثيرة »

٩ : البر الاقتصادي

والامر الثاني الذى نشدته في درسي للانجيل هو غاية في الاهمية واستطيع أن اعبر عنه بهذا السؤال : ماذا كان موقف يسوع تجاه الحالة الاقتصادية في العالم ، التي لم تكن الحركة التي بدأ بها سوى مقدمة لها ؟ أو بعبارة أخرى ، ما هو النظام الذي وضعه يسوع للعلاقة بين العمل وثمرات العمل في الملكوت الذى جاء ليؤسسه على الارض ؟

وقد وجدت اشارة الى الجواب على هذا السؤال في الصلاة التي علمها لتلاميذه ، وهـذه الاشارة ظاهرة من الفقرتين التاليتين من الصلاة الربانية :

« ليأت ملكوتك . لتكن مشيئتك . كما في السماء كذلك على الارض . »

ومن هذا يتضح لنا ان «ملكوت الله» هو الزمان المقبل الذي تسود فيه مشيئة الله في جميع انحاء الارض كما هي في السماء .

ولكن ماهي مشيئة الله في العمل ونتيجة العمل ؟ قد أجاب يسوع على هذا بقوله : « انا والاب واحد » فلكي نعرف مشيئة الله في هذا الموضوع يجب علينا ان ندرس تعليم يسوع في القضية التي نحن في صددها .

فقد شرح لنا بانصع البيان حقيقة الحالة الاقتصادية في ملكوت الله بما يكفينا عناء البحث الكثير وينيلنا رغبة قلوبنا بسهولة . كل

شيء في العالم يمكن ان يعرف ويحدد بتعريف ما هو ضده «وبضدها تتبين الاشياء» بهذه الطريقة قدم يسوع التعريف الذي ننشده . واليك ما يقوله في سيد الملكوت المعاكس لملكوت الله

« مامن رجل يستطيع ان يخدم ربين : لانه اما ان يبغض الواحد ويحب الآخر أو يكرم الواحد ويحتقر الآخر . انكم لا تستطيعون ان تخدموا الله والمال . »

لذلك وجب ان يكون النظام الاقتصادي لملكوت الله معاكساً على خط مستقيم للنظام الذي يعتمده أرباب الاموال في جميع أعمالهم فالتنازع على تحصيل الثروة اذن هو شريعة ملكوت المال والتعاضد في تحصيل الضروري منها للحياة هو شريعة ملكوت الله .

أما في شأن النظام الذي وضعه يسوع فى ملكوته الجديد للعمل وثمرة العمل فقد بنى رأيه على اساس تبادل المنافع والاشتراك بالمسؤولية . وذلك ظاهر من أقواله الآتية :

«احبب قريبك كنفسك . »

« من أراد ان يكون فيكم عظيما فليكن لكم خادماً ومن أراد ان يكون الاول فيكم فليكن للكل خادما . لان ابن الانسان لم يأت ليُخدَم بل ليَخدُم . »

« فاذا كنت وانا الرب والمعلم قد غسلت ارجلكم فيليق بكم ان تغسلوا بعضكم أرجل بعض . »

تأمل ايضاً في التعليم السامي الذي اودعه المثل التالي :

« ومن منكم اذا كان له عبد يفلح في حقله أو يطعم قطعانه يقول له عند رجوعه من الحقل ، اذهب واجلس معي الى الطعام ؟ أفلا يقول له بالاحرى أحضر لي اولاً ما آكله ومنطق نفسك واخدمني حتى افرغ من مأكلي ومشربي وبعدئذ تأكل وتشرب ؟ أفهل يشكر ذلك العبد لانه فعل ما أمر به؟اني لا اخاله يفعل ذلك. وهكذا انتم اذا فعلتم ما أمرتم به قولوا نحن عبيد بطالون قد فعلنا ما هو متوجب علينا . »

فهو يخبر الفرد بهذا المثل انه عبد للانسانية فيجب الا يعمل لنفسه بل للجماعة ، وانه يجدر به الا يقف ، ولو تعب في جهاده ، بل فليواصل عمله طالما ان الانسانية في حاجة الى تعبه ، واذا فرغ من جميع هذا لا يكون جديراً بأي نوع كان من الاجر على عمله ، لان واجب الانسانية المفروض عليه يستغرق كل قوته ويحتاج الى جهوده كلها .

وهنالك مثل آخر يوضح رأي المعلم في العمل واجرة العمل في النظام المقبل الذي يسود في ملكوت الله . وهاك نصه :

« يشبه ملكوت السماوات رجلا رب بيت خرج بالغداة يستأجر عملة لكرمه . فشارط العملة على دينار في اليوم وارسلهم الى كرمه . ثم خرج في الساعة الثالثة فرأى آخرين واقفين في السوق بطالين . فقال لهم، امضوا انتم الى كرمي وانا اعطيكم ما يحق لكم. فمضوا . وخرج أيضاً نحو الساعة السادسة ونحو التاسعة وصنع كذلك .

وخرج أيضاً نحو الحادية عشرة فوجد آخرين واقفين بطالين . فقال لهم ، ما بالكم واقفين ههنا النهار كله بطالين ؟ فقالوا له ، لانه لم يستأجرنا احد . فقال لهم ، امضوا انتم أيضاً الى كرمي فتأخذوا ما يحق لكم .

« فلما كان المساء قال رب الكرم لوكيله ادع العملة واعطهم الاجرة مبتدئاً من الاخرين الى الاولين . فجاء اصحاب الساعة الحادية عشرة فاخذوا كل واحد ديناراً . فلما جاء الاولون ظنوا انهم يأخذون اكثر . فاخذوا هم أيضاً كل واحد ديناراً . وفيما هم يأخذوا تذمروا على رب البيت قائلين : ان هؤلاء الاخرين عملوا ساعة واحدة ، فجعلتهم مساوين لنا ونحن حملنا ثقل النهار وحره . فاجاب وقال لواحد منهم : ياصاح ، ما ظلمتك. الم اكن على دينار شارطتك ؟ خذ ما لك وامضي فاني اريد ان اعطي هذا الاخير مثلك. أليس لي ان افعل بمالي ما أريد؟ ام عينك شريرة لاني صالح؟ »

ان هذا المثل يضع الاساس الثابت للعقيدة الصحيحة القائلة بوجوب . وجود اجرة واحدة لجميع الذين يبذلون قصاراهم في عملهم سواء كان ما يبذلونه كثيراً ام قليلاً — وهي عقيدة تتفق الاتفاق كله مع العقيدة المركسية في علم الاقتصاد .

وقد اثبت يسوع كل هذا بالآية الخالدة :

« اطلبوا اولا ملكوت الله وبره، وهذه كلها (الاكل والشرب واللباس) تزاد لكم . »

ومعنى هذا اعتصموا بالبر الاقتصادي الذي هو التعاضد في الاعمال وحينئذ لا تحتاجون الى الخوف بتة من الافتقار لحاجات الحياة الضرورية .

١٠ : الفوضوية أو الاشتراكية

لم يضع يسوع نظماً معينة للاعمال ، ولم يتنبأ بالنظام الذي ستسير عليه الاعمال في عهد التعاضد والتآلف في الصناعة البشرية عند ما يبلغ الناس فردوس البر الاقتصادي في حياتهم . على ان فريقاً من ذوي التقوى في ايمانهم بيسوع قد فكروا وعلموا بملء الثقة والتحقيق أن النظام الواحد الذي يمكن ان يسلم به يسوع ويتفق مع مبادئه السامية هو ذلك النوع الحر من التعاضد الذي تستطيع به اية جمعية من الناس ان تتطوع باختيارها للعمل بالقوة المتحدة ، المتألفة من اجتماع كلمة افرادها ، واتحادهم للسير جنباً الى جنب ، من غير استقلال بعضها عن بعض أو استبداد بعضها ببعض بما أوتيته الواحدة من القوة التي ليست لرفيقتها . ومن هذا نرى ان يسوع يصدق على اجتماع الناس واتحادهم باعمالهم محافظين على شرائع الحكومة التي يستظلون بظل سلطانها وعاملين على رفعة بعضهم بعضاً وتقدمهم وفلاحهم .

فالاول أو الرأي الفوضوي البلشفيكي لا أرى له ما يعضده في تعاليم الانجيل الا الآيات الآمرة بالاعراض عن مقاومة الشر بمثله ،

وأهمها الاية التي ترددها الالسنة في كل يوم ، «لا تقاوموا الشر .» فنحن اذ نسعى لفهم روح يسوع يليق بنا ان نضع هذه الآيات الآمرة بعدم مقاومة الشر موضعها اللائق بها في عضد تعاليم يسوع الادبي المجرد القاضي بالمحافظة على مصلحة الجماعة كل المحافظة . ومن هنا نرى ان هذه التعاليم لم يقدمها يسوع لعصر تؤلف ابراره الا كثرية الساحقة بين الناس

ان مطالعة الاناجيل ودرسها بما تستحقه من التأمل العميق قد احدثا في نفسي تأثيراً فعالا واوضحا لي حقيقة الرجل الذي تمثله صفحاتها لنا . فهو ليس بالخيالي المتساهل ، ولا بالحالم الواهم ، بل هو رجل رأي وحزم لا يقول قولا الا ويقرنه بالفعل ، رجل على اتم الاهبة لاستعمال الشدة في القول والعمل كلما دعت اليها حاجة ، رجل كامل يعشق الدقة في الاعمال ويعلن ان كل من يضع يده على المحراث ولا يستطيع ان يسير في ثلمه سيراً مستقيما حتى النهاية لا يصلح لملكوته السماوي ، رجل يرفض ان يقبل بين تلاميذه ومريديه حتى الذي يتردد هنيهة عن اتباعه للقيام بواجبات دفن أهله وذويه مع ما في هذه الواجبات من القداسة والبركة ، رجل يهوى العمل الصالح ولذلك يقول ، « بما انكم فعلتموه مع احد اخوتي هؤلاء الصغار ، » ولا يقول ، « بما انكم لم تفعلوه ! » أو « بما انكم رغبتم في فعله ، » لان الرغبة وحدها لم تكن كافية في نظره ، ولذلك قال : « من علم وعلم فهذا يدعى عظيما في ملكوت السماوات . »

ولذلك لم يخطر لي قط ان اشك في ان مثل هذا الفكر السامي يفضل الاشتراكية العملية على الفوضوية النظرية التي لا ثمرة لها الا في مخيلات اصحابها . وبالاختصار فقد وجدت في صفحات الانجيل الرجل كل الرجل مفكراً ، ومتكلماً ، وعاملاً ، فأخذت كلماته المخلصة بمجامع قلبي واستولت على كلية فكري ، فعرفته ونظرت اليه نظرتي إلى المثل الأسمى للاشتراكي العاقل الشديد التمسك بعقيدته يغرس بطريقته المثلى غروس التعاضد العامل على سعادة المجتمع البشري واطراد نجاحه .

١١ : أعداء الاشتراكية في الكنيسة

ومع ان يسوع بذل جهده لطرد عشاق المال من جماعته فقد اعترف بانه لم يقم بكل العمل من هذا الوجه . وعلى هذا قوله لتلاميذه ، ألم انتخبكم انتم الاثنى عشر بنفسي وواحدمنكم شيطان؟» وقد اعترف أيضاً بان الحركة التي اثار نارها في صدور التلاميذ كانت معرضة لان يدخلها كثيرون ممن لم يتفقوا مع مبادئها الاولية . ومع انه عرف ان هذا لا بد منه في البداية . فقد اشار الى زواله عند حلول النظام الاخير : « ملكوت السماوات » الكامل . وهذه النبوءة ظاهرة من المثلين التاليين :

وضرب لهم مثلا آخر قائلا : يشبه ملكوت السماوات رجلا زرع زرعاً جيداً في حقله . وفيما الناس نائمون جاء عدوه وزرع في

وسط القمح زوانا ومضى . فلما نما النبت واخرج ثمراً حينئذ ظهر الزوان . فجاء عبيد رب البيت وقالوا له ، يا سيد ، ألم تكن زرعت في حقلك زرعاً جيداً ! فمن اين له الزوان ؟ فقال لهم ، ان رجلاً عدواً فعل هذا . فقال له عبيده ، أتريد ان نذهب ونجمعه ؟ فقال لهم ، لا . لئلا تقلعوا الحنطة مع الزوان عند جمعكم له . دعوهما ينبتان جميعاً الى الحصاد ، وفي أوان الحصاد أقول للحصادين اجمعوا اولا الزوان واربطوه حزماً ليحرق واما القمح فاجمعوه الى اهرائي . »

فاجاب وقال لهم ، الذي زرع الزرع الجيد هو ابن البشر . والحقل هو العالم . والزرع الجيد هو بنو الملكوت . والزوان هو بنو الشرير . والعدو الذي زرعه ابليس . والحصاد هو انقضاء العالم . والحصادون هم الملائكة . وكما ان الزوان يجمع ويحرق بالنار هكذا سيكون في منتهى الدهر : يرسل ابن البشر ملائكته فيجمعون من مملكته كل الشكوك وفاعلي الاثم ويلقونهم في اتون النار . هناك يكون البكاء وصريف الاسنان . حينئذ يضيء الصديقون مثل الشمس في ملكوت ابيهم . »

« وأيضاً يشبه ملكوت السماوات شبكة القيت في البحر فجمعت كل جنس . فلما امتلأت اطلعوها الى الشاطىء وجلسوا وجمعوا الجيد في الاوعية والردي، رموا به خارجا . هكذا يكون في منتهى الدهر . يخرج الملائكة ويميزون الاشرار من بين الاخيار ويلقونهم

في اتون النار . هناك يكون البكاء وصريف الاسنان .

ولاشك ان عاشقي الفضة صائرون الى البكاء وصريف الاسنان اذا أغلقت في سبيلهم ابواب الحصول على أموالهم بالطمع والجشع والظلم والخيانة والقي بهم وباموالهم في اتون النار المحرقة لكل قذارة في العالم .

وفي المثلين اللذين أوردناهما سابقاً دليل واضح على ان المعلم الصالح سبق فرأى وعلم ان كثيرين من اعداء الانسانية ومحبي المال سيدخلون كنيسته التي اوجدها اشتراكية بروحها ومبادئها ولذلك زاد على ما سبق قائلا :

« ليس كل من يقول لي يارب ، يارب ، يدخل ملكوت السماوات ، بل الذي يعمل ارادة ابي الذي في السماوات. كثيرون سيقولون لي ، يارب ، يارب ، ألم نتنبأ باسمك ؟ وباسمك ألم نخرج الشياطين ؟ وباسمك ألم نصنع عجائب كثيرة ؟ حينئذ أقول لهم ، انى لم اعرفكم قط ، اذهبوا عنى يافاعلي الاثم .

وان المثل التالي ينطبق على امثال هؤلاء المرائين كما ينطبق على غير المسيحيين من الاشتراكيين . قال المعلم :

« كان لرجل ابنان . فجاء الى الاول وقال له ، يا ابني، اذهب اليوم واعمل في كرمي . فاجاب وقال ، انى لا أريد. ولكنه تاب بعدئذ وذهب . ثم جاء الى الثاني ، وقال له كذلك .فقال له اذهب ياسيدي ، ولكنه لم يذهب فأي الاثنين فعل ارادة أبيه ؟

١٢ : مجيء المسيح

قد تكلم يسوع في « مجيء ابن البشر » الى هذه الارض « بقوة ومجد عظيم » وجعل هذا المجيء فاتحة العهد الذي يسود فيه « ملكوت الله » ولكن الآراء متضاربة في تفسير معنى هذه النبوءة . واكثر هذه الاراء تدل على تعصب القائلين بها كل لمذهبه والمذاهب كثيرة تظهر بوضوح ان اتباعها لم يدركوا جيداً الحقيقة الواحدة التي يمثلها « مجيء ابن البشر »

وفي هذا الموضع كافي غيره من درسي للاناجيل شعرت بضرورة فهم كلمات يسوع بصورتها الطبيعية . لانه لو صور لنا رجل صورة ملاك جالس على سحب السماء فان هذا لا يحملنا بالضرورة على ادراكها بظواهرها بل بالحقيقة المستترة وراءها . فالعقل الصحيح يدلنا على انها رمز لحقيقة روحية تمثلها لنا بمظهرها المادي . وقد عمد يسوع الى هذه الطريقة التصويرية الرمزية في تقديم جميع التعاليم الخالدة التي جاء الى العالم من أجلها . وخير مثال لذلك قوله :

« مالم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه فليست لكم حياة فيكم »

« ولما وجد التلاميذ كلامه هذا صعبا فهمه قال لهم :

« الروح هو الذي يحيي . وأما اللحم فلا يفيد شيئاً . والكلام الذي كلمتكم به هو روح وحياة »

ولزيادة الايضاح في هذا الموضوع نحيل القارىء الذي يشعر انه ادرك القليل من القوة التي أودعها يسوع أقواله وامثاله الى مثل العشر العذارى وتفسيره : وهنالك يرى بملء الوضوح ان الخط الفاصل بين الصورتين، المادية والروحية ، يتلاشى ويزول كأنه لم يكن حينما لا يبصر أمامه سوى الامثولة الواحدة القائلة :

« كونوا على اتم الاستعداد ، في كل حين ، لاغتنام الفرصة السانحة لخدمة الانسانية لانكم عندما اهملتم اغتنام الفرصة . التي سنحت لكم في الامس خسرتم الاجتماع بابن البشر وأغلق الباب دونكم ولن تجدوا الى فتحه سبيلا . لذلك لا تتقاعدوا فيما بعد عن اغتنام كل فرصة تسنح لكم .

وهنالك مثل آخر تقدمه لمثل هذا القارىء لينظر متأملا في مثل الدينونة الاخيرة التي يقف فيها جميع الامم أمام عرش ابن البشر فيصفهم عن يمينه وعن يساره . فان الصورة العظيمة المرسومة في هذا المثل لا تلبث ان تتلاشى، ولكن حقيقة واحدة تبقى بعدها ثابتة لا تزول ولا تتبدل ، وهي دينونته للاشرار ومكافأته للاخيار أمام الصورة المحفورة في قلب الانسانية من ضمير الانسانية والاثر الانساني المجيد الذي تحدثه الصورة فيه ، سواء كان قد فعل الخير أم لم يفعله مع انه عرض له في طريقه وكان قادراً ان يفعله ، مع المكافأة التي وعد بها اذا كان قد قام بما هو متوجب عليه — والثواب السماوي الذي يصادفه اذا كان يسير في مناهج البر وسبل الفضيلة التي رسمها

له يسوع — كل هذا يكون نتيجة لتلك الصورة الراعبة ولا يبقى في النفس من تأثير لها إلا آه .

وقد قادني هذا الادراك لحقيقة الصور اللفظية التي رسمها يسوع والنظر من خلال امثاله الى رموزها دون الفاظها ، وروحها دون مادتها ، الى المعنى الحقيقي الذي أراده المعلم من نبوءته عن « مجيء ابن الانسان » وهذا المعنى مبني على حقيقتين في شأن يسوع : الاولى انه ادرك اسرار الطبيعة البشرية وعرف القوات الكامنة في اعماق الانسان . والثانية انه لم يفصل بين ذاته وبين المحبة الكاملة الكلية، ولذلك قال : « انا والاب واحد »

العمومي متقدم على الخصوصي سواء في تهذيب الفرد أو في تهذيب المجموع . وقد عبر يسوع عن ادراكه لهذه الحقيقة بقوله : « اذا كان انسان يصنع مشيئته فانه يعرف اذا كانت هذه العقيدة من عند الاب أم انني اتكلم من عند نفسي وأيضاً أقول ان العمومي متقدم على الخصوصي سواء في تهذيب الفرد. أو في تهذيب المجموع . لانه اذا اقتصرت اعظم العلاقات الكائنة بين الناس — علاقات الرابطة الاقتصادية ، رابطة الخبز الجوهري على التنازع على البقاء وجهاد الفرد لوحده وسعيه الحثيث للحصول على ما تريده انانيته وطمعه فانه يستحيل على الانسان بهذه الصورة ان يدرك حقيقة الخالق أو ان يتذوق طعم المحبة العظمى . ولكن اذا تحولت العلاقة الكائنة بين الناس في سبيل الحصول على الرزق.

الى تعاضد وتآلف فان المحبة العامة تصبح سهلة المسالك يصل الجميع الى اشجارها المثمرة ويتمتعون بثمرانها الشهية. حينئذ تفتح الابواب على مصاريعها في منزل القلب البشري فيدخل الله بشخص ابنه الحبيب الى قلوب الجميع أو كما قيل: « حينئذ يشرب يسوع الخمرة الجديدة معنا في ملكوت أبيه »

هذا هو المستقبل السعيد الذي اطلق عليه يسوع اسم « مجيء ابن الانسان على سحب المجد. » كوميض البرق الذي يأتي من المشارق ويضيء حتى المغارب. ولكنه يأتي خلسة في ساعة لا ننتظرها. لان الجيل الجديد ضعيف القوة على التحليل والاستنتاج ولذلك تأتيه الاختبارات الجديدة بالعجب العجاب وسيتقدم تلك الساعة ليل طويل يخيل للناظرين اليه انه خالد الى الابد. ولكن وراءه شروق شمس لامعة باقية أنوارها الى منتهى الدهر ولو لم يتقدمها ما يعلنها من تباشير الفجر

١٣ : العبادة

ولاشك ان لتعليم يسوع غاية اسمى وانبل من الغاية الاقتصادية فهو يعمل على رفعتنا الى السماء كما يدعو الى سعادتنا على الارض. فانه يغرس في اعماق قلوبنا بذور الايمان الراسخ بان أباه وأبانا إلاه التعاضد والمحبة، وانه كلي القدرة سيقضي في النهاية على جميع عاشقي الفضة من الانانيين والطامعين. واكثر اقواله تدور حول البشارة

المفرحة التي حملها للانسان المطرود من الجنان بفتح أبواب الفردوس الضائع ودخوله فيه مرة ثانية .

وهل في العالم من خبر أوفر بهجة وأكثر فرحا من البشارة المعلنة أن المحبة هي قلب الوجود وينبوعه الفياض بمياه الحياة وألفه وياؤه ، واننا نحن البشر الضعفاء نستطيع ان نعيش مع هذه القوة التي ندعوها محبة ونخاطبها وتخاطبنا في اعمق اعماقنا ؟ انها بالحقيقة لبشارة عظيمة بالفرح الاعظم « لابناء المسرة » الذين يجاهدون ويحاربون ضد قوات العالم لتأييد الحق والعدل والسلام

انتهى أمير السلام

الفضيلة والنعمة

ملخصة عن الدكتور هنري فنديك

ضمني واحد الاصدقاء مجلس منذ بضعة أيام دار فيه الحديث حول مبادىء يسوع . ومما قاله صديقي في الموضوع ،اننا اذا نظرنا الى التعاليم الادبية التي جاء بها يسوع وعملنا بها نكون ذليلين حقيرين في العالم . ثم قال : « ان الرجل الذي لا يدافع عن نفسه اذا أساء أحد اليه بل يأذن للناس ان يهينوه ويؤذوه من غير ان تبدر منه حركة للدفاع عن نفسه هو بالحقيقة خامل جبان وهل بيننا الليلة من يشك في هذه الحقيقة ؟ »

جميعنا نعرف هذه الحقيقة وكلنا واثقون بصحتها . بيد انني بعد الاصغاء التام الى ما جادت به قريحة صديقي من الوصف البليغ للرجل المهان الذليل المحتقر لم أتمالك عن الظن بان هذا الوصف انما عني به يسوع يجلده جنود الرومان ولا ينبس ببنت شفة . وعلى العكس من ذلك نرى بطرس ، على رغم يأسه وقنوطه من خلاص معلمه ، ينتضي سيفه ويضرب ضربته في سبيل الحق فيربح شكرنا وثناءنا على صنيعه واعجابنا به الى الابد

فمن كان الاعظم من الاثنين بطرس أم المسيح ؟ بطرس المحب، الامين ، الذي استل سيفه من غمده لكي يدافع عن معلمه ضد

الجنود الهاجمين للقبض عليه ، ام المسيح الذي اخذ السيف من يده وزجره موبخًا اياه على عمله، ومن غير ان يفتح فاه أسلم نفسه بطوعه واختياره لمحاكمة شريرة وموت أكيد ؟

اننا نحب القديس بطرس وليس فينا من لا يجله ويشكر له سعيه ليضرب ضربة واحدة في سبيل المعلم البريء . نعم ، نحن نحب بطرس ، ولكننا نعبد المسيح؟ ونحن لانسمي انفسنا بطرسيين ولا نسير في أثر بطرس وسيفه ، بل ندعو ذواتنا مسيحيين ونتبع يسوع وصليبه . ومع اننا لا نستطيع ان نقتفي آثار ربنا ، فنحن نعتقد ان هذا نتيجة قصورنا وضعف طبائعنا واننا لسنا مثل معلمنا لنعمل عمله .

فكيف استطاع المسيح ان يتصرف بالطريقة التي كيفما نظرنا اليها نرى انها مجلبة للاهانة والسخرية ، ومع ذلك نرى ذواتنا بسببها ، وليس لسبب آخر ، مجذوبين بحبه تحملنا قوة فعالة الى عبادته ونحن ممتلئون من روح الشر والخصام؟ وما هي القوة التي كانت له وليس لنا مثلها ، نحن الذين نسمي ذواتنا مسيحيين زوراً وبهتاناً ؟ ماذا ينقصنا ياترى لكي نتمكن من العمل مثل معلمنا ونستقي مياه تصرفاتنا الحاضرة من معينه النقي؟ ما هي الصفات التي نحن في حاجة اليها لكي نعمل كما عمل هو ؟ ولماذا ، وباية صورة نحن لانشبهه ؟ ما هي العلامة الفارقة التي تفصل بيننا وبينه ؟

ان الجواب عن هذه الاسئلة ، او بالحري السؤال الاخير منها،

هو جل غايتي من المقال الحاضر . فان هنالك فضائل عمومية مارسها الوثنيون في الاجيال الغابرة وما برح احفادهم يمارسونها حتى اليوم وقد رغب يسوع الى كل مؤمن به راغب في رسالته ان يؤمن بهذه الفضائل ويجعلها حقائق في حياته قبل ان يضع يده على المحراث للعمل في كرم الملكوت الجديد . ولذلك قال لتلاميذه : « ان لم يزد بركم على بر » الاخرين من المعلمين لن تدخلوا ملكوت السماوات .

في مقدمة العادات الشائعة بيننا نحن المسيحيين المبالغة في تعظيم ما نطلق عليه اسم « النعمة المسيحية ، » وحث الناس على وجوب السعي وراء التحلي بهذه النعمة التي تفرد بها المسيح عن جميع الناس . ولكننا نتناسى في الغالب ان يسوع وثق بالفضيلة الوثنية وجعل مركزها من تعاليمه مركز الأساس من البيت وهي حتى الساعة حجر الزاوية في صرح المسيحية الحقيقية .

ولكن ما هي الفضائل التي أعجب بها الوثنيون ومارسوها ؟ وأنا اعني بالوثنيين هنا الخارجين عن كنيسة المسيح فقط ، ولا اقصد بها عبدة الاوثان وغيرهم من امثالهم . اعني بها جميع الذين لا يسمون أنفسهم مسيحيين : بل لهم معتقد خاص بهم أو أنهم يعيشون بلا معتقد البتة . ما هي الفضائل أو المبادىء الادبية التي تمسكوا بها ؟ كان في مقدمة هذه الفضائل ما يأتي :

الاخلاص . الشجاعة . سمو الروح . الامانة . الحكمة . العدالة . القوة الفكرية على كبح الجامح من العواطف . الروح الهادئة

الوديعة التي قلما تضطرب للامور الصغيرة.هذه هي بعض الفضائل والمبادىء الادبية العامة التي يحترمها جميع الناس من المؤمنين كانوا ام من غير المؤمنين . وقد تكون الشجاعة اولها ثم الشرف فالامانة على حقوق الاصدقاء ، فالاستقلال فالحكمة وغيرها جميع هذه فضائل سامية ، وبدونها لا صلاح على الارض .

على ان الذي يفحص تعاليم المسيح بما يجب من الدقة والعناية يجد في الحال ان المعلم الاكبر نظر الى جميع هذه الفضائل نظرة المصدق بها وعليها بنى تعاليمه بامرها . وليس في جميع أقواله وأعماله أقل أثر للعقيدة الراعبة ، التي علم بها فريق من علماء الكلام فيما بعد العقيدة القائلة بان الطبيعة البشرية شريرة بفطرتها . ان يسوع لم يقل قط بان الناس اشرار بطبائعهم ولذلك يجب عليهم ان يتغيروا تغييراً كاملا لكي يصيروا مسيحيين ، ولكنه سلم غير مرة بان اكثر الناس معتدلون بفضائلهم . وعندما أراد ان يظهر لنا طبيعة الله بوضوح علمنا ان الله هو مثل الاب البشري ولكنه اعظم وافضل منه . ومع ان في العالم كثيرين من الاباء القساة ، الظلمة ، المتوانين في واجباتهم الوالدية فان المعلم الصالح كان واثقاً بان اكثر الاباء محبون عطوفون . ولذلك قال انهم اذا كانوا وهم في الجسد المعرض للخطيئة يعرفون ان يمنحوا عطايا صالحة لاولادهم فكم بالحري ابوكم الذي في السماوات.» فهو لم يرفضهم . ولم يتكلم قط كانما نحن جميعنا اشرار ولا رجاء لنا .

وانا نستطيع ان نعبر عن تعليمه بما يأتي : « انتم قريبون من من ابيكم السماوي ايها الناس، وعلى كل منكم ان يسير شوطه بجد واجتهاد . وانتم جميعكم ترأفون ببنيكم ، وحسناً تفعلون . فحافظوا على عملكم . ولتكن لكم هذه الفضيلة سلماً ترقون بها الى حيث تنظرون عطف الله وتتمتعون برأفته باولاده . »

وفي العظة على الجبل ، التي هي انقى معين للتعاليم المسيحية واشرف واقدس مظهر من مظاهر النصرانية ، نرى يسوع بين الآونة والاخرى يظهر لنا ان أكثر الناس لهم فضائلهم الخاصة ، وعلى ذلك قوله : « سمعتم انه قيل للقدماء ، لا تحلف باطلاً ، بل أوف الرب باقسامك . » فالمسيح لم يقل للناس ، « انني عارف انكم لا تحافظون على عهودكم ،ولا تفون بوعودكم ،ولذلك اوصيكم ألا تحلفوا البتة. » بل قال للانسان ، « يجب ان تقلع عن الاقسام، لان جميع هذه الوسائل التي تريد ان تظهرها لاقناع من تخاطبه بصحة كلامك انما تزيده شكاً في كلامك بعد ان يرى انك تحتاج في اثباته الى الاقسام والايمان لذلك لا تحلف فيما بعد ، بل فليكن كلامك نعم ، نعم ، ولا ، لا . وما زاد على ذلك فمن الشرير . » فلنكن اذن صادقين في أقوالنا حتى لا يحتاج احد الى ان يطلب منا قسماً أو ايماناً .

***

« سمعتم انه قيل عين بعين وسن بسن . »

كانت هذه الوصية من اسمى الشرائع الادبية التي احترمها اليهود وعملوا بها قبل المسيح . وكل من قرأ العهد القديم يعرف ان اليهود القدماء كانوا اسبب اقل تعد يقتلون القبيلة المعتدية مع جميع حيواناتها وماشيتها . ولكن الشريعة لم تعلمهم مثل هذا التعليم ، لأنها لم تأمرهم بمحبة الانتقام ، بل أمرتهم بمحبة العدالة . فاذا قلعت عين يجب ان تقلع عين عوضاً عنها . واذا كسر احد يد جاره يجب ان تكسر يده فقط : لا أكثر ولا أقل . ولذلك لم يقل يسوع ان اليهود ظلمة محبون للانتقام . بل نظر الى اسمى ما في شريعتهم فقال لهم : « ايها الاخوة ، هذه هي شريعتكم المعبرة عن رغبة واضعها العادلة . فهي تعلمكم الا تكونوا محبين للشر والاذية . وتأمركم أن تكونوا عادلين في احكامكم . اما أنا فلي غاية اسمى من العدالة البشرية وهي المحبة المقدسة السماوية . »

***

« سمعتم انه قيل للقدماء احبب قريبك وابغض عدوك » . لم يقل المعلم الصالح « ايها الناس الاشرار والاردياء ، الذين يبغض بعضهم بعضاً ، انتم اشرار بطبائعكم فيجب ان تغيروا ذواتكم تغييراً كاملاً ! » بل سلم بقوله ان الذين خاطبهم كانوا متمسكين بشريعة ابائهم محافظين عليها بدقة كاملة . ولكنه اظهر انها غير كافية للبلوغ الى الكمال ، فعلمهم كيف يصيرون الى حالة افضل بمحبة اعدائه .

وفي كل فصل من فصول هذه العظة الخالدة نرى يسوع يبدأ بحثه بفضيلة من فضائل المعلمين الذين جاؤوا قبله ويبني عليها تعليمه الجديد في الموضوع الذي وضعت له . أفليس من الغريب اذن ان نجرب نحن المولودين في الكنيسة المسيحية ان نبلغ النعمة السماوية التي علم بها يسوع ونمارسها قبل ان نتعلم على الاقل الفضائل الاولية التي عرفها العالم الوثني وعمل بها ، واهمها الامانة والشجاعة والاخلاص واحترام النفس ؟

٢

اجتمعت من مدة ببعض رجال الدين . وفي اثناء الحديث نهض احدهم وشرع يندد بما لقيه من سوء معاملة زميل له من اصدقائه اللاهوتيين . وقبل ان تتاح لي فرصة كافية للتفكير في موضوع كلامه ، قلت له من فوري : « انني ابغض رجال الدين . » فتقدم اليّ مسرعاً ومد يده مصافحاً وقال لي : «هات يدك وصافحني فقد استرقت الرعد من رأسي ؟»

غير انني لا ابغض رجال الدين بل احبهم من اعماق قلبي . لان رجل الدين التقي ، الفاضل ، الذي يظهر بحسن تصرفاته انه تلميذ حقيقي ليسوع ، هو عند الامتحان اكثر فضيلة واوفر شرفاً وعطفا من احكم حكماء الارض الغير المسيحيين مهما كان هذا متمسكا باذيال مبادىء الاخلاق والاداب التي وضعها علماؤه ومعلموه . فالطهارة والسيرة الشريفة التي بزغت انوارها من شمس حياة

القديس فرنسيس الاسيسي مثلا لم يبلغ مثلها حتى مرقس اوريليوس نفسه في العالم الوثني. ولكن الذي قصدته ووافقني عليه صديقي بقولنا السابق هو اننا لا نحب الرجل الذي يسعى الى ممارسة فضائل النعمة المسيحية التي هي التواضع والتضحية والمحبة والسلام قبل ان تمتزج دماؤه بالشجاعة والشهامة والشرف

وقد أخبرنا المعلم الشجاع اننا اذا لم نحمل الصليب ونتبعه فما نحن بأهل لأن نكون تلاميذ له ونحن نفهم هذه العبارة ونعتقد أنها تعلمنا وجوب الاستعداد لتضحية ذواتنا حتى الموت في سبيله . ولكن هنالك فريقاً من الناس الذين يضحون ذواتهم حتى النهاية ولكن تضحياتهم لا تثمر سوى الانانية النامية في صدور اقربائهم وجيرانهم. فلماذا هذا ؟ أليس لأن تضحية الذات لا يمكن ان يمارسها الا الذين تفردوا بالشجاعة الادبية التي لا تعرف معنى الخوف أو الأذية ؟

قد ضحيت الكثير من مصالحي غير مرة ، وكنت أفكر في كل مرة انني صنعت صنيعاً حسناً ، ولكنني بعد أن تقدمت في الايام وصار في منالي أن أعود بالفكر الى ما فعلته سابقاً لادرسه بما لي من الاختبار الجديد ، وجدت انني بالحقيقة لم يكن لي شجاعة في ذلك الحين لافعل غير ما فعلت ! فان الراغب في التضحية تعوزه الشجاعة التي بها وحدها يستطيع أن يتسلط على الانانية الممقوتة . لانني في سبيل التضحية كثيراً ما احتاج الى العزم والقساوة ، وأنا لم اقدم على تضحية ذاتي لمجرد محبتي للتضحية ، بل انما فعلت ذلك

لانه لم تكن لي الشجاعة لافعل غيره . وكم هنالك من مثل هـذه التضحيات !

فالتضحية تتحول في الحال الى كراهية ممقوتة مالم يكن لصاحبها عزيمة ثابتة للتسلط على ارادته . وهي كثيراً ما تؤدي الى الانانية عوضاً عن الامانة . لاننا لا نستطيع أن تأخذ من العالم إلا بمقدار ما نعطي العالم ، ومع انه قد ينقضي وقت طويل على ظهور هذه الحقيقة ، فهي نتيجة لازمة لا بد من الوصول اليها ان لم يكن عاجلا فآجلاً . فاذا كانت النتيجة الاخيرة لتضحيتنا وعدم انانيتنا اننا نحمل الغير على الانانية فاي فضل في تضحيتنا ؟ أفهل نحن واثقون بان تضحيتنا صادرة عن محبة حقيقية للتضحية ، أم نحن جبناء وليست لنا شجاعة انكون انانيين ، أم نحن راغبون في مديح الناس واطرائهم إيانا بقولهم : « بورك فيها من امرأة محبة للتضحية والسترة ، ! » أو « بورك فيها من ابنة امينة وزوج صالحة ! » (لان رذيلة عدم الانانية اكثر انتشاراً بين النساء منها بين الرجال) فاذا كانت تضحية الانسان مبنية على هذا الاساس فباطلة هي ، لأنها تكون نتيجة لازمة للانانية . لان تضحية الذات لا تستطيع أن تمارسها امرأة مالم يكن لها شجاعة كافية للقيام بعملها محمولة بعامل المحبة لذلك العمل وليس سعياً وراء الشهرة الباطلة والمجد الفارغ .

يعلق المسيحيون اليوم بنوع خاص اهمية كبرى على فضيلتي الاعتدال والتواضع . ولـكن اذا أمعنا النظر في الموضوع ألا نرى

أن اعتدالنا نفسه هو في أكثر الاحيان نتيجة لحاجتنا الى الشجاعة الادبية؟ لان يسوع عند ما رأى الذين تأبى الشكوك عن ايديهم لم يكتف بالقول انهم قليلو التهذيب فقط، بل قال: «انه لا فضل لهم لو علق في عنقهم حجر الرحى وطُرحوا في لجة البحر.» فقد كان صريحاً جداً في توبيخ المنحرفين عن الصراط المستقيم، ولم يعرف الاعتدال قط في أمور كهذه.

كثيراً ما اظهرت منتهى التواضع لانني لم يكن لي القسط الكافي من الشجاعة الادبية للتصريح بحقيقة افكاري. ومما اذكره ولا انساه انني كنت مرة عضواً في لجنة مؤلفة من نخبة من رجال الدين، غايتها السعي وراء تغيير نظم العالم العقيمة واستبدالها بنظم مثمرة صالحة، وكنا نبحث في من سيتولى الكتابة في هذا الموضوع لحض الناس على الجهاد في سبيل تحقيق الغاية التي كنا نؤمن بها جميعاً، وكان من جملة المرشحين لهذا العمل رجل لم يكن أحد يشك في مسيحيته الحقيقية ولكن آراءه السياسية كانت تجعله مرغوبا عنه في ذلك الحين. ولذلك قال رئيس اللجنة: «يلوح لي أيها الاخوة انه ليس من الحكمة ان نسأل هذا الرجل ليكون في مصف الكتبة لمشروعنا، لان كل مطبوعاتنا تقوم بها شركة تطبع كتباً دينية وهي ولا شك تأبى أن تضغط شعور قرائها!» وانني ما برحت اذكر شدة تأثري ويأسي في تلك الساعة. اذ كيف يمكن ان يكون لنا قسطنا من التأثير في العالم اذا كنا نريد أن نحابي بالوجوه ونطلب

رضا مشتركينا قبل رضا الحقيقة؟ بيد انني نظرت أخيراً الى رئيس اللجنة وقلت في سري ، « لعل هذا الشيخ اكثر حكمة مني ، ولذلك أرى من الخطأ التصريح بافكاري . » فسكت ولم انبس بكلمة ، لانني كنت خائفاً من التصريح بارائي اكثر مما كنت راغباً في احترام آرائه . ولذلك ارى انه سهل علينا أن نقنع ذواتنا بوجوب ممارسة الفضائل المسيحية ، ومنها الرحمة والاحسان ، في حين اننا نكون في اشد الحاجة إلى فضيلة الوثنية التي هي الشجاعة لكي نبدأ بها عملنا .

كثيراً ما نرى اننا في جهادنا العظيم للقيام بعمل من الاعمال المذكورة نشعر في اعماقنا بعاطفة تدفعنا الى الوراء خوفا من أن يكون العمل الذي نقوم به خطأ . ولذلك نرى ذواتنا مضطرين الى الاعتقاد بانه ليس من الواجب المسيحي ان ندين غيرنا . « لا تدينوا لكي لا تدانوا » فنحن نمتنع عن الدينونة لغيرنا وبذلك نمتنع عن الاحتجاج والاعتراض . ونعتقد انه من الشذوذ الاعتراض على أي أمر كان واهمين ان السكوت من علامات الحشمة والادب ! ولكن معلمنا الصالح لم يخف ان يعترض على شذوذ المنحرفين عن جادة الحق ، ولم يقصد بمنعه ايانا عن الدينونة سوى تعليمنا فضيلة التواضع الحقيقية التي لا تعني الذلة والخنوع .

عرفت مؤخراً سيدة عملت بامانة واخلاص في خدمة احدى الجمعيات الخيرية وبذلت قصارها في تأدية اعظم الخدمات لجمعيتها .

ولكنها رزحت أخيراً تحت احمالها الكثيرة ولم تبق لها طاقة على العمل . فعزلت للحال من وظيفتها التي كانت موردها الوحيد للمعيشة وبعد ان تم فصلها من الخدمة جاءها رسول من الجمعية يطلب اليها ان تتكل على الله في أمر معاشها في المستقبل. فالاعراض عن القيام بواجب الخدام الذين اشتغلوا لاجلنا وخدمونا والقول لهم في وقت عجزهم ضعوا ثقتكم بالله وهو يعد لكم — هو عند التحقيق جريمة لا مغفرة لها . فاذا كنت لا تستطيع ان تعتني بخدامك عندما يصيرون عاجزين عن القيام بواجبات خدمتك ، فالواجب يقضي عليك قبل كل شيء ان تقدر الحالة التي يكونون فيها ولا تدعي انهم بلغوا ما بلغوا بسبب عدم اتكالهم على الله وانك انت بسبب اتكالك على الله صار يحق لك ان تطرد كل انسان عاجز عن خدمتك متصرفا به كما تشاء ! فالرحمة هي السلم الوحيدة الموصلة الى الثقة بالله والاتكال عليه تعالى .

خذ قضية اعداء الحرب ومحبي السلام مثلا ، فان الرجل الذي يدعي انه يكره الحرب يجب ان يبرهن أولا ان في صدره شجاعة لا تضاهيها شجاعة افرس الفرسان الذين في ساحة الهيجاء ، وحينئذ تصدق دعواه في محبته للسلام

« مالم يزد بركم على بر الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السماوات »

فكما ان برنا يجب ان يزيد على بر الكتبة والفريسيين ،

هكذا شجاعة الذين يحبون السلام ويكرهون الحرب يجب ان تزيد على شجاعة الجنود والمقاتلين . لانني عندما اسمع أخبار المعترضين على الحروب يصيحون ويلتمسون من يحميهم اثق في الحال بان عقيدتهم في السلام محض وهم وضلال . فان الجندي الذي يحارب مرغما وهو يود ان يترك ساحة الحرب في أية فرصة سنحت له هو عند التحقيق ضربة على الجيش الذي يحارب فيه اكثر مما هو عون له . والسلام الذي نسير اليه في المستقبل يجب ان يزيد على شجاعة بطرس ، لاننا بدون هذه الشجاعة لا نقدر ان نربح العالم للمسيح

— ٣ —

فكر قليلا أيها القاريء الاديب ، ثم سل ذاتك ، ألم تجتمع جميع فضائل العالم القديم ، التي نحتاج اليها نحن المسيحيين اليوم ، الم تجتمع تلك الفضائل بكاملها في شخص معلمنا يسوع ؟ فانه مع كل ما أودع في قلبه من المحبة والرقة والعطف والرحمة نراه شديداً في توبيخ الاشرار شجاعا في تونيب المنافقين والمرائين حتى بين أرقى طبقات الشعب . فكما نرى لطفه ودعته في وصف الخطاة والمطروحين في حمأة اليأس نرى أيضاً شدته في القضاء على الكبرياء في قصور الملوك والمتنفذين . والذين كان يخاطبهم كانوا يؤمنون بسلطته الكاملة على عمل مايريد . ولذلك كانت دعته دعة اقوى الاقوياء ، وكان تواضعه ثمرة لعظمة غير محدودة . وانه لو فعل كما

طالما نفعل نحن مع الذين نحبهم، وفي بعض المرات مع الذين لا نحبهم، — فندعي ان كل شيء حقيقي في حين انه غير حقيقي، ونغمض عيوننا عن الامور التي نعلم انها مخطئة لاننا نحب المديح والاطراء، ونرفض ان ننظر الى ما يستحق العذل واللوم بحجة اننا نستقبح رؤيته، — انه لو فعل كل هـذا لـكان مديحه واطراؤه كمديحنا واطرائنا، مغموساً بالغايات والرغبات المتناقضة ولما كان من تأثير لمحبته قط. ولـكن الناس عرفوا ان رحمته هي العدالة بعينها، وادركوا انه قادر ان يبصر اعماق أعماقهم، ومع ذلك فهو يحبهم بالسوية، ومحبته قائمة على أساس الحق والعـدل والنور ولذلك كان لها من التأثير في تقدم العالم ما لم يكن لغيرها.

أجل، كان يسوع متحلياً بمتانة في اخلاقه، وشجاعة في فكره وجسده: شجاعة جسدية عظيمة وشجاعة ادبية عظيمة. وكان سامي الفكر رحب الصدر. فاذا وثق بتلاميذه لم تـكن ثقته دليلا على عدم معرفته انهم سينكرونه ويهربون جميعا: ولا يمكن لنا أن نقول ان استبقاءه ليهوذا كان دليلاً على جهله لسر الاسخريوطي. وفي عمله الفدائي العظيم نرى شجاعة غريبة كثيراً، انحنت امامها رؤوس افرس ابطال العالم. وفي تقديمه ذاته من أجلنا استنهاض لهمة كل منا ليحذو حذوه في عمله. به وضعت كل فضيلة او نعمة مسيحية على صخرة الشرف والامانة، والعدل والشجاعة، والوحي البعيد والعزم الأكيد. لان القوي يستطيع ان يظهر عظمة اللطف

والرقة متى تحلى بهما . اما لطف الضعيف فانه يحتوي في الغالب على مادة تسمه وتحوله الى جبانة. واما لطف القوة ـ القوة الجسدية او الروحية او القوتين معاً، كما في المسيح ـ فهو أليق الجميع بالاعجاب والاحترام .

لذلك نرى ان المسيح عندما وقف امام بيلاطس ، بلا سيف ولا عصا ولا اعتراض ـ خاف منه بيلاطس . وفي منال القاريء ان يلاحظ هذا في كل عبارة تفوه بها العاهل الروماني . فالمسيح كان القاضي في تلك المحاكمة دون بيلاطس . ولذلك احبه العالم وخافه من تلك الساعة . فيجدر بنا نحن المؤمنين برسالته في هذا القرن الحاضر ان نبدأ من البداية ، فلا نترقب ان يتحرك العالم ، او ان تحدث فيه اعجوبة تحوله الى غير ما هو ، بل يجب ان نثق بانه يسير الى الامام بقوة النعمة المسيحية المبنية على اساس الفضائل القديمة الثابتة. ويجب علينا ايضا ان نعلم اننا كثيراً ما نشوش هدوء تعاليم المعلم الصالح فنبعد الناس عنها ، لان في اعماق قلب رحمتنا ضعفا وفي مجاري دماء تضحيتنا خوفا .

انتهى الكتاب

كلمة لا بد منها

كيف كتبت هذا الكتاب
وكيف اكتب كل كتاباتي

ان واجب الرسالة الروحية التي اخدمها يقضي عليّ بالسفر المتواصل في جميع انحاء اميركا الشمالية لخدمة نفوس اخوتي من ابناء المواطن العزيزة المتفرقين في طول البلاد وعرضها . ولذلك كنت وما برحت مسافراً بغير انقطاع من شمال كندا الى جنوب المكسيك ، ومن شرق الولايات المتحدة الى غربها . فأنا تارة في سان فرانسيكو ، وطوراً في ولايات نيو انكلاند . تارة في ولايات كوبك واونتاريو من اعمال كندا ، وطوراً في تكسيس ، واوكلاهوما ، ولويزيانا ، وفلوريدا وغيرها من الولايات الجنوبية في الولايات المتحدة . تارة في كوبا ، وطوراً في اليوكاتان ومكسيكو الجنوبية والشمالية . ولكن القيام بواجباتي الروحية لا يتطلب اكثر من يومين او ثلاثة أيام من كل اسبوع ، ولذلك كان الوقت متسعاً لدي للدرس والمطالعة والكتابة المتواصلة في كل مكان .

انني من المؤمنين بالعمل وقداسة العمل ولا ابالغ اذا قلت ان العمل الصالح هو الدين كله . ولذلك احب ان اعمل بغير انقطاع بما تعلمته واعتقد بفائدته للناس . لاجل هذا ابذل قصاراي في كل المحافظة على دقيقة من وقتي مستخدماً اياها كما يجب . فانا اكتب

في القطار ، وفي المنزل ، وفي الفندق ، وفي المحل التجاري ، وفي كل مكان اجد فيه كرسياً أو حجراً أجلس عليه. أما الورق والحبر فهما في حقيبتي الصغيرة التي احملها ابداً ولا اطيق فراقها .

وعلى شديد رغبتي في الكتابة المستقلة فانني لا ازال اعتقد بوجوب الترجمة عن كبار الكتاب والمنشئين الغربيين . لانني اعتقد انهم اكثر منا علماً وأوفر منا اطلاعاً ، والفرص التي سنحت لهم في الثلاثمائة السنة الاخيرة لم يسنح لنا مثلها . ففي نقل افكارهم وآرائهم في الحياة واسرارها ، والوجود وشرائعه واديانه ، ما ليس في افكارنا وآرائنا . وفوق هذا فانا اعتقد ان الفكر لا يستكمل نضجه قبل الخامسة والثلاثين، وانا لم ابلغ الحادية والثلاثين بعد ولذلك اعتقد ان التأني في كتابة ما افكر فيه لوحدي خير لي وللذين يقرأونني . فليصبر الذين يلحون عليّ بالكتابة المستقلة والله مع الصابرين .

اعود الى كيفية كتابة هذا الكتاب فاقول :

ان القسم الاول منه كتبته في سنة ١٩٢٤ في المدن الاتية : بورتلاند اورغون . سان فرنسيسكو ولوس انجلس كليفونيا . الباسو ، تكساس .

والقسم الثاني كتبته في اوقات مختلفة مدة اقامتي في مدينة ترهوت انديانا عندما كنت اشتغل في بناء كنيستها الكبرى للمواطنين في سنة ١٩٢٦ .

والقسم الاخير كتبته في بلدة صغيرة من اعمال الولايات المتحدة اسمها ستكتون كليفورنيا في آب سنة ١٩٢٨

وقد حالت اشغالي الكثيرة دون تبييضه كل هذه المدة حتى اغتنمت الفرصة اخيراً وأنا ازور المواطنين في ولايتي اوكلاهوما وتكساس فشرعت في تبييضه وانا استرق ساعة في هذه المدينة وساعتين في تلك حتى فرغت منه اليوم . والى القارىء قائمة باسماء المدن التي تم فيها تبييض هذه السطور القليلة :

سبولبا ـ [illegible] ـ بريستو ـ شوني ـ مود ـ اوكلاهوماستي ـ في ولاية اوكلاهوما .

دلاس ـ واكو ـ مرلين ـ هيوستن ـ بومنت في ولاية تكساس .

ومن هذا كله يتضح للقارىء الاديب عذري اذا رجوت من فضله ان يغمض الطرف عما يلاقيه من الخطاء في اثناء مطالعته وأنا له من الشاكرين

بومنت تكساس في ٢٠ شباط سنة ١٩٢٩

الارشمندريت

انطونيوس بشير

م	
١٠	عامان في عمان (عاصمة شرق الاردن) لخير الدين الزركلي
٥	علم النفس لحسين رمزي
٥	كتابة الرسائل التراسية تعريب محمد الجوهري
١٠	كنز الحكماء في أسرار الارض والسماء في علم الفلك
٥	محاضرات الشيخ محمد الخضري في نقد كتاب الشعر الجاهلي لطه حسين
١٠	مشاهد العالم الجديد وهي رحلة فؤاد صروف الي اميركا
٥	مناظرات الاناشيد الوطنية لمنصور عوض الموسيقار الشهير
٥	وقائع شاهين مرعي الشقي الشهير
١٥	مفاخر الاجيال في سير أعاظم الرجال بالصور
١٥	آداب العصر في شعراء الشام والعراق ومصر بالصور
٤	معارضات قصيدة ياليل الصب (متى غده) لعيسى المعلوف

م	
٢٠	شعراء السودان مزين بالصور لسعد ميخائيل
١٠	خواطر نيازي تعريب ولي الدين يكن
٥	مجموعة خطب سعد زغلول الحديثة
٥	أحاديث الشباب مقالات أدبية
١٥	اختلال التوازن العالمي لجوستاف لوبون
١٥	الاباء والبنون لميخائيل نعيمه
٨	السيارة (الاتوموبيل) يشرح جميع أجزاءها وكيفية وعلم تسيير الاتوموبيلات والمتوسكلات
٢٥	خلاصة تهذيب الكمال في أسماء الرجال للانصاري
٦	التمرين في تصريف الدوبيا
٥	اسرار المراهقة بالفتى للدكتور شخاشيري
٥	أسرار المراهقة بالفتاة له ايضاً
٨	التمريض المنزلي للدكتور غصن
٥	عظماء الفراعنة
١٠	حياة المسيح لجوفاني بابيني
٥	ثلاثة مفكرين في الدين

تباع الكتب الآتية في مكتبة العرب بالفجالة بمصر

ص	
٨	النهج القويم في تاريخ شعوب الشرق القديم طبع بيروت
٤	تربية الارانب بالصيف والشتاء
٥	زراعة الكتان بمصر
٨	تحرير المرأة لقاسم أمين
٨	تهذيب الاخلاق لابن مسكويه
٥	حديث القمر لمصطفى الرافعي
٦	الدروز والثورة السورية لكريم ثابت
١٠	تذكرة الكاتب لاسعد داغر
٦٠	نزهة الجليس ومنية الاديب الانيس وهي رحلة كبيرة في بلاد العرب للموسوي جزآن
٣٠	قصة فيروزشاه ٤ مجلدات
٥	نوادر جحا الكبرى بالصور
٦٠	كنز الرغائب في منتخبات الجوائب خمسة اجزاء تأليف احمد فارس الشدياق

ص	
٦	تطورات الزراعة وارتقائها
٣	الرقص العصري تعريفات عنه
٥	سعادة الشبان في طهارة الابدان
٥	في سبيل الاستقلال مصر وانجلترا
٢٠	مشهد العيان في حوادث سنة ١٨٦٠ بلبنان للدكتور مشاقة
٣	نوادر الادباء
١٥	هداية الاطفال لحسن توفيق
٥	خواطر في التربية
٢٠	شرح ادب الدنيا والدين طبع الاستانة
١٢	كتاب الارواح لطنطاوي جوهري
٣٥	وفاء الوفاء في اخبار دار المصطفى جزآن
١٢	الالفاظ الكتابية للهمذاني
٤٠	قصة حمزة البهلوان اربعة اجزاء
٤٠	قصة الملك سيف اربعة اجزاء
٤٠	قصة الف ليلة وليلة اربعة اجزاء